

د. نبيل فاروق

من بين أوراق التاريخ جاء ..

من قلب الحضارة والأمل ظهر ..

من أجل العدالة والحق كان ..

رمز الماضى والحاضر والمستقبل ..

الفارس ..

فارس الأندلس ..

د. نبيل فاروق

١ ـ اغتيـــــال ..

اختفت الشمس أو كادت ، خلـف الجبـال البعيـدة ، المطلَّة على مدينـة (كيجاطة) الأندلسية ، إحدى مدن مملكـة (غرناطـة) ، آخـر مـا تبقَّـى للعـرب فـى (الأندلس) ، فى تلك الفترة من الزمن ، وبدأ الشفق يتلوَّن تدريجيًا بـألوان الغروب الرائعـة ، فـى نفس الوقت ، الذى دخل فيه إلى المدينة فـارس ممشـوق القامة ، متين البنيان ، تفوح منه رائحة الفتوة ، على متن جواد أسود أدهم ، ينافس راكبه شـبابًا وقـوة ، وراحا يقطعان معًا سوق المدينة ، الذى انتهت تجارته ، وبدأ بائعوه يلملمون ما تبقَّى من بضاعتهم ، ويحصـون ما ربحوه من مال ، استعدادًا للعودة إلى ديارهم ..

ولأن (كيجاطة) مدينـة تجاريـة ، اعتـادت اسـتقبال الوافدين ، مـن كل المدن والقرى المحيطة ، لم يلفت الفـارس وجـواده انتباه الكثـيرين ، إلا وهـو يسـتوقف بعض المارة ، ويسألهم :

ـ أطمع فى أن يرشدنى أحدكم إلى دار الحاج (حسـام ابن على) .

لم يكن الاسم غامضًا أو مجهولاً ، فالحاج (حسام) واحد من أفضل من أنجبتهم (كيجاطة) ، فى تاريخها الطويل ، وهو تاجر معروف ، ومناضل قديم ، من أولئك القلائل ، الذين وهبوا حياتهم للدفاع عن بقاء العرب فى (الأندلس) ، وإذكاء نار الحماسة فى نفوسهم ، حتى يتحدوا ، ويهبوا لملاقاة العدو القشتالى ، الذى يتوغل فى كياتهم أكثر وأكثر ..

لذا فقد أرشد العديدون الفارس إلى دار الحاج (حسام) ، ولم يكد يبلغها ، حتى قال لحارسها فى لهجة قوية :

ـ أخبر الحاج (حسام) أننى أحمل له رسالة خاصة ، وأننى أنشد ضيافته ، حتى مطلع شمس الغد .

تطلع إليه الحارس فى شىء من الشك والحذر ، وألقى نظرة قلقة على قوسه ، وسيفه ، وجعبة الأسهم المعلقة على كتفه ، قبل أن يقول :

ـ تفضل فى المضيفة على الرحب والسعة ، حتى أبلغ مولاى .

ترجل الفارس عن جواده ، وعلق قوسه على سرجه ، وأضاف إليه جعبة الأسهم ، وهو يبتسم ، قائلاً :

ـ أهذا يشعرك بالأمان أكثر ؟

صمت الحارس لحظة ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ لو أضفت إليهما سيفك فحسب .

اتسعت ابتسامة الفارس ، وانتزع حزام السيف وغمده ، وعلقهما فى رقبة الجواد ، قائلاً :

ـ ألا تعتقد أنك حذر أكثر مما ينبغى ؟

أجابه الحارس فى هدوء ، لا يخلو من الحزم :

ـ الحذر أفضل من الندم .

ثم أشار إلى الداخل ، مستطردا :

ـ والآن تفضل .

تقدم الفارس خطوة ، ثم تراجع فى هدوء ، والتقط سهمًا من جعبته ، فانعقد حاجبا الحارس ، وتحركت يده فى حركة عفوية إلى مقبض سيفه ، فأشار الفارس بيده ، قائلاً :

ـ رويدك يارجل .. السهم لا يقتل وحده دون قوس .. إنما هى عادة أتفاعل بها فحسب .

صمت الحارس لحظات ، وهو يرمقه بنظرة متحفزة ، ويدير الأمر فى ذهنه ، ثم لم يلبث أن اعتدل ، قائلاً :

ـ فليكن .. سأبلغ مولاى .

دلف الفارس إلى المضيفة ، وألقى نظرة على وسائدها وطنافسها ، وتلك النافورة الصغيرة فى منتصفها ، وهز رأسه ، مغمغمًا :

ـ من الواضح أنك تحيا حياة مرفهة يا حاج (حسام) .

فى نفس اللحظة ، كان الحاج (حسام) يعقد حاجبيه الكثين الأشيبين فى حيرة ، وهو يسأل حارسه :

ـ ألم يخبرك حتى عن اسمه ؟!.

أجابه الحارس :

ـ كلا يا مولاى .. كل ما قاله هو : أنه يحمل رسالة خاصة.. وينشد ضيافتك ، حتى مطلع الشمس .

هز الحاج (حسام) رأسه فى حيرة ، مغمغما :

ـ عجبا ! .. من يمكن أن يرسل فارسا مجهولاً برسالة ؟!

اعتدل الحارس ، قائلا فى حزم :

ـ هل أعود فأصرفه يا مولاى ؟

انتفض الحاج (حسام) ، هاتفا :

ـ إياك يا ولدى .. بغض النظر عن الرسالة ، فالفارس ينشد ضيافتنا ، والحاج (حسام) لا يرد ضيفًا أو يصرفه قط .

ثم نهض ، وأشار إليه فى حزم ، مستطردا :

ـ اذهب إلى مولاتك ، وأخبرها أن لدينا ضيفا عابر سبيل ، سيقضى ليلته فى ضيافتنا .. فلتعد الطعام ،

وتذبح الذبائح .. لا أريد أن يبيت ضيفنا جائعا .

قالها ، واتجه فى خطوات حاسمة حازمة إلى المضيفة ، ولم يكد يلمح الفارس ، حتى قال فى حرارة :

ـ مرحبا مرحبا بأخ العرب .

نهض الفارس يستقبله بابتسامة كبيرة ، وهو يقول :

ـ أنت الحاج (حسام) .. أليس كذلك ؟!

أجابه الحاج فى هدوء :

ـ بلى يا ولدى .. تفضل بالجلوس .. نزلت أهلا ، وحللت سهلا .. اعتبر نفسك فى دارك .

التقط الفارس نفسا عميقا ، قبل أن يقول :

ـ عندى رسالة لك يا حاج (حسام) .

أشار الحاج بيده فى حزم ، قائلا :

ـ ليس الآن يا ولدى .. الرسالة يمكنها أن تنتظر .. دعنا نقم بواجب ضيافتك أولاً .

ارتسمت على شفتى الفارس ابتسامة كبيرة ، وهو يقول :

ـ فليكن أيها الحاج .. أنا جائع بالفعل .

قال الحاج فى حزم :

ـ دقائق ويأتى الطعام يا ولدى .

وراحا يتسامران ويتحاوران ، حتى جاء الطعام ،

فشمّر الحاج أكمامه ، وراح يقدّم الطعام لضيفه ، ويسقيه بيديه ، حتى اكتفى وشبع ، فأمر برفع صحاف الطعام ، وإعداد أقداح الشاى ، قبل أن يقول :

ـ اعذرنى يا ولدى ، ولكننا تحدثنا طويلاً ، دون أن أسألك عن اسمك .

اعتدل الفارس ، وهو يقول :

ـ اسمي سيدهشك حتمًا يا حاج (حسام) ، فلست عربيًا كما تتصوّر ، وإنما أنا قشتالى .

اتسعت عينا الحاج فى دهشة ، وهو يهتف :

ـ قشتالى ؟ ! .. ولكن لغتك العربية لا غبار عليها .

ابتسم الفارس فى شىء من السخرية ، قائلاً :

ـ لهذا اختارونى ، لأوصل إليك الرسالة .

سأله الحاج فى توتر :

ـ أية رسالة ؟

استلّ الفارس من طيات ثيابه خنجرًا ماضيًا بغتة ، وانقضّ به على الحاج (حسام) ، وغرسه حتى مقبضه فى قلبه ، هاتفًا :

ـ هذه .

اتسعت عينا الحاج فى ألم ، ودار حول نفسه ، هاتفًا بصوت مختنق :

ـ خيانة .. خيانة .

ثم هوى جثة هامدة ..

وفى سخرية ، أخرج الفارس ذلك السهم من جيبه ، وكسر رأسه ، وألقاه إلى جوار جثة الشيخ ، قائلاً :

ـ بل قل : بطولة ، أيها العربى الساذج .

قالها ، وأطلق صفيرًا ، تجاوب معه جواده بصهيل قوى ، فانطلق يعدو نحو الشرفة ، فى نفس اللحظة التى ظهر فيها الحارس ، واستلّ سيفه ، صارخًا فى غضب وارتياع :

ـ يا إلهى ! .. مولاى (حسام) قُتل .. خيانة .. مولاى (حسام) قُتل .

وانطلق خلف القشتالى ، الذى وثب عبر النافذة ، إلى صهوة جواده ، وهو يطلق ضحكة ساخرة عالية ، وانطلق يعدو به مبتعدًا ، فى قلب الليل ..

وصرخ الحارس :

ـ أوقفوه .. أوقفوا الخائن .

إلا أن صرخته ضاعت فى الهواء ، والفارس القشتالى يبتعد ..

ويبتعد ..

ويبتعد ..

* * *



وفى سخرية ، أخرج الفارس ذلك السهم من جيبه ، وكسر رأسه ، وألقاه إلى جوار جثة الشيخ ..

لم يفارق الملك (فرناندو) شرفة حجرته لحظة واحدة ، منذ استيقظ من نومه ، مع شروق الشمس ، وظلت عيناه معلقتين بالسماء طوال الوقت ، حتى أن الملكة (إيزابيلا) ، ملكة (قشتالة) و (ليون) ، قالت له فى عصبية :

ـ ماذا أصابك اليوم يا ملك القشتاليين ؟ .. هل صرت مجذوبًا ، لا يمل التطلع إلى السماء ؟!

انعقد حاجباه فى شىء من الغضب ، وهو يغمغم :

ـ مجذوب ؟ !

ثم استدار إليها ، مستطردًا فى شىء من السخرية :

ـ ماذا أصاب (إيزابيلا) التقية الورعة ؟ .. لماذا تلوّث لسانها الجميل بتلك الألفاظ ، التى لا تصلح إلا للرعاع والسوقة ؟! .. أهى عدوى من جنودك الأوغاد ، أم رغبة فى التشبه بجواريك الحسان ؟ !

بدا عليها الغضب ، وهى تقول فى حدة :

ـ جنودى هم جنودك يا ملك القشتاليين ، أما جوارىّ ، فأظنك أكثر معرفة بهن منى .

ابتسم ساخرًا ، وهو يتجه إلى المنضدة ، ويصب لنفسه كأسًا من الخمر ، مجيبًا :

ـ بالتأكيد .

ثم رفع كأسه فى وجهها ، مستطردًا :

ـ ولكن هذا ليس الشىء الوحيد الذى أجيده .

قالت بسرعة :

ـ بالطبع .. هناك التآمر أيضًا .

برقت عيناه ببريق ساخر ، وهو يجرع كأسه دفعة واحدة ، واحتقن وجهه فى شدة ، وهو يقول :

ـ هذا صحيح .. التآمر هو موهبتى الأولى ، وستثبت الأيام هذا ، عندما تجعلك براعتى فى التآمر ملكة على (غرناطة) .

مطّت شفتيها ، قائلة :

ـ سمعت هذا ألف مرة من قبل .

أشار بسبابته ، قائلاً :

ـ فى هذه المرة سيكون الإيقاع مختلفًا بالتأكيد .

انعقد حاجباها ، وهى ترمقه بنظرة شك ، وقالت فى شئ من الحدة :

ـ يلوح لى أنك تخفى شيئًا .

ارتسمت على شفتيه ابتسامة خبيثة ، راحت تتسع فى سرعة ، حتى تحولت إلى ضحكة مجلجلة ، جعلتها تهتف غاضبة :

ـ أنت تخفى شيئًا حتمًا .

تعلّقت عيناه بغتة بنقطة ما فى السماء ، وفوجئت به يندفع إلى الشرفة ، هاتفًا :

ـ آه .. إنها هى على الأرجح .

أسرعت خلفه إلى الشرفة ، وتابعت ببصرها واحدة من الحمام الزاجل . تطير نحو برج القصر مباشرة ، ثم سألته فى توتر :

ـ ما الذى تنتظره ؟

أجابها فى لهفة :

ـ رسالة من (بابلو) .

كرّرت فى دهشة :

ـ (بابلو) ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، وهو يعود فى خطوات سريعة إلى الحجرة ، ويصبّ لنفسه كأسًا من الخمر فى انفعال ، قائلاً :

ـ (بابلو دى لوركا) ، حارسى الخاص .

سألته فى توتر :

ـ ولماذا يرسل لك (بابلو) رسالة ؟

جرع كأسه الثانية دفعة واحدة أيضًا ، وهو يجيب :

ـ سترين بعد لحظات .

لم تمض دقائق معدودة ، حتى وصل أحد الحراس ،

حاملاً الرسالة ، التى وصلت بها الحمامة ، ففضّها (فرناندو) فى لهفة ، وألقى نظرة سريعة عليها ، تألّقت معها عيناه ، قبل أن يطلق ضحكة ظافرة ، هاتفًا :

ـ رائع يا (بابلو) .. رائع .

سألته الملكة (إيزابيلا) .

ـ ماذا تقول الرسالة ؟

ألقاها إليها ، هاتفًا :

ـ (بابلو) نجح فى التخلّص من الحاج (حسام ابن على) .

سألته فى حيرة :

ـ ومن (حسام بن على) هذا ؟!

قهقه ضاحكًا مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ يا له من سؤال !.. من الواضح أنك تجهلين الكثير عن خصومنا يا ملكة (قشتالة) و (ليون) .. الحاج (حسام بن على) واحد من ثلاثة رجال ، تقوم على أكتافهم الروح الحماسية والقتالية للعرب ، وتلتهب لخطبهم المشاعر ، وتتأجج ضدنا ، مما يجعل بلوغ هدفنا شاقًا عسيرًا .

ثم فرقع سبّابته وإبهامه ، مستطردًا :

ـ ولكن لو تخلّصنا منهم ، فلن تصبح المهمة بالصعوبة نفسها ..

اتسعت عيناها ، وهى تهتف :

ـ هل أرسلت (بابلو) لاغتيال الحاج (حسام) هذا ؟

صاح فجأة :

ـ خطأ .

ثم صبّ لنفسه كأسًا ثالثة ، مستطردًا :

ـ لقد أرسلته لاغتيال ثلاثتهم .

وارتشف هذه المرة رشفة صغيرة من كأسه ، قبل أن يتابع فى حماس :

ـ وعندما ينجح فى هذا ، سيصبح طريقنا إلى (غرناطة) مفتوحًا ، وسنضع نهاية للوجود العربى فيها ، وفى (الأندلس) كلها ..

قالها ، وعاد يطلق ضحكة عالية مجلجلة ، و ... وشامتة ..

* * *

استنشق الشيخ (فاضل القرطبى) ، قاضى مدينة (بسطة) نسيم الصباح العليل ، فى شرفة داره ، وملأ صدره بالهواء النقى ، وهو يغمغم :

ـ صباح جديد ، ورزق جديد ، من الخالق (سبحانه وتعالى) .. اللهم ارحمنا برحمتك ، وارزقنا من رزقك ، وأعنّا على حياتنا وهمومنا .

ثم التفت إلى ابنه (همّام) ، مستطردًا :

ـ أسرج جوادى يا ولدى .. الطقس صحو ، أحب أن أعدو بجوادى.فى الحقول قليلا .

ابتسم (همّام) ، قائلا :

ـ سمعًا وطاعة يا أبى .. دقائق ونخرج معًا .

أومأ القاضى برأسه فى ارتياح ، مغمغمًا :

ـ بارك الله فيك يا ولدى .. بارك الله فيك .

كان يشعر بالسعادة ؛ لأن الله (سبحانه وتعالى) قد أنعم عليه بولد صالح ، أطوع له من بناته ، يحسن صحابته ورعايته فى شيخوخته ..

ويسعى لكل ما يرضيه أيضًا ..

ففى دقائق معدودة ، كان (همّام) قد أسرج الجوادين ، وانطلق مع والده وسط الحقول الخضراء الغنّاء ، وهو يسأله فى اهتمام :

ـ قل لى يا أبى : هل تؤمن حقًّا بأنه مازال بوسعنا استعادة (الأندلس) ؟

تنهّد الشيخ (فاضل) ، قبل أن يجيب :

ـ مازلت أومن بأنه مازال هناك أمل ، لو أننا عدنا إلى إيماننا ، وصدقنا ، وتعففنا عن المفاسد ، وتآزرنا كيد واحدة ، فى وجه القشتاليين .

سأله ابنه فى حذر :

ـ وهل تعتقد أن هذا ممكن ؟

صمت الشيخ لحظات ، واكتست ملامحه بالحزن ، وهو يجيب :

ـ كل شىء ممكن يا ولدى .. كل شىء .. المهم أن نتسلّح بالإيمان والأمل .

قال ابنه فى أسى :

ـ ولكن كيف السبيل إلى هذا يا أبى ، وأمراؤنا يعيثون فسادًا فى الأرض ، ويتجاهلون العدو ، و ...

بتر عبارته بغتة ، وهو يتطلّع بعيدًا ، فسأله الشيخ (فاضل) ، وهو يدير عينيه إلى حيث ينظر :

ـ ماذا هناك يا ولدى ؟

أشار (همّام) إلى ظل شجرة قريبة ، قائلاً :

ـ هناك رجل يراقبنا هناك .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى خرج الرجل وجواده من دائرة الظل ، واتجه نحوهما ، قائلاً للقاضى :

ـ صباح الخير .. أنت الشيخ (فاضل) .. أليس كذلك ؟

أومأ القاضى برأسه إيجابًا ، وهو يسأل :

ـ بلى يا ولدى .. من أنت ؟

أجابه الرجل فى شىء من السخرية :

ـ أنا رسول ، أحمل إليك هدية .

قال الشيخ فى دهشة :

ـ رسول ؟.. رسول من يا ولدى ؟ وأية هدية تلك التى تحملها ؟

استلّ الرجل سيفه بحركة حادة سريعة ، وهو يهتف :

ـ رسول ملك (قشتالة) يا شيخ المأفونين ، وها هى ذى هديته .

صرخ (همام) ، عندما رأى السيف يهوى على عنق والده :

ـ لا .. أبى .

واستلّ سيفه بدوره ، لينقضّ على (بابلو) ، صارخًا :

ـ أنت قتلت والدى أيها القشتالى .. أنت تستحق الموت .

استقبل (بابلو) سيف (همام) على سيفه ، ثم تراجع بحركة ماهرة ، وانقضّ على الشاب فى سرعة ، وأطاح بسيفه بضربة قوية ..

وفجأة ، وجد الشاب نفسه أعزل ، فهتف :

ـ أيها الحقير .. كنت أتمنى أن أحتفظ بسيفى ، لأواصل القتال معك حتى النهاية .

أطلق (بابلو) ضحكة ساخرة ، هاتفا :

ـ لا تقلق يا فتى .. إنها نهايتك فى كل الأحوال .

ووثب إلى الأمام ، يغمد سيفه فى صدر الشاب ، الذى جحظت عيناه ، وهوى إلى جوار جثة أبيه ..

وفى لا مبالاة ظافرة ، انتزع (بابلو) سهمًا من جعبته ، وكسر رأسه ، ثم ألقاه إلى جوار الجثتين ، قبل أن يقهقه ضاحكا ، ويقول :

ـ لم أكن أعلم أن اغتيال زعماء العرب هينًا إلى هذا الحد .

وجذب عنان جواده ، الذى أطلق صهيلًا قويًا ، وهو يضرب الهواء بقائمتيه ، قبل أن ينطلق براكبه ، فى طريقهما إلى (غرناطة) ، لأداء المهمة الثالثة .. والأخيرة .

* * *



٢ - الفارس ..

انطلق سهم قوى ، يشق الهواء ، فى منطقة المخيّم الصغير ، على مشارف (غرناطة) ، ومرق وسط لهيب شمعة كبيرة واجتث طرف فتيلها المشتعل ، دون أن يسقط أو يمسّ الشمعة نفسها ، قبل أن ينغرس فى جذع شجرة ، على بعد مترين منها ، وارتفع صوت يهتف فى مرح :

- مرحى يا فتى .. لقد فعلتها .

خفض (فارس) قوسه ، وهو يملأ صدره كله بالهواء ، فى سعادة ظافرة ، ومعلّمه (مهاب) يستطرد فى حماس :

- أرأيت يا مولاى الوزير ؟.. عندما تحدّيته أن يفعلها ، لم أكن أتصوّر أنه يستطيع هذا فعلاً ..

ابتسم الشيخ فى وقار ، وهو يقول :

- لا تنس أنه تلميذك يا (مهاب) .

التفت (فارس) إلى (مهاب) ، مضيفًا :

- وما زلت أدين لك بالفضل .

ربت (مهاب) على ظهره فى قوة ، قائلاً فى سعادة :

- إننى أشعر بالفخر لهذا يا ولدى ، ولكنك تلميذ فاق أستاذه .. أنا نفسى لا يمكننى فعل هذا .

هزّ الشيخ رأسه فى بطء ، قائلاً :

- كفى يا (مهاب) ، وإلا أصبته بالغرور .

مطّ (مهاب) شفتيه ، وهزّ رأسه ، وهو يقول :

- أنت على حق يا مولاى الوزير .. لا ينبغى أن أبالغ فى مدحه .

أشار الشيخ بسبّابته ، قائلاً فى صرامة :

- حذار يا (مهاب) .. إنك تخاطبنى بهذا اللقب كثيرًا ، فى الآونة الأخيرة ، وهذا يعرّضنا جميعًا للخطر .

احتقن وجه (مهاب) ، وهو يغمغم :

- معذرة يا سيّدى .. لم أنتبه إلى ...

قاطعه (فارس) بغتة ، وهو يشير إليه فى حزم ، ويرهف سمعه ، قائلاً :

- اصمت .

أطبق (مهاب) شفتيه فى سرعة ، والتفت إليه مع الشيخ فى تساؤل ، وأدهشهما أن اتجه إلى جواده (رفيق) فى خطوات واسعة سريعة ، ثم يثب على متنه ، دون أدنى صوت ، ويقبض على معرفته ، هامسًا فى أذنه :



وهناك استقرّ جامدًا ساكنًا ، كتمثال من المرمر ، يراقب المكان فى حذر وانتباه ..

- فى هدوء يا (رفيق) .. لا نريد أن ينتبهوا إلينا .

همس (مهاب) فى توتر :

- ماذا حدث بالضبط ؟!

أشار إليه الشيخ ، هامسًا :

- اصمت وانتظر .. إنه يعرف ما يفعله جيدًا .

انطلق (رفيق) يخوض الدغل المجاور فى خفة ، كما درّبه (فارس) ، الذى لاذ بالصمت بدوره ، وعيناه تدوران وسط الأغصان المتشابكة ، وهو يرهف سمعه إلى أقصى حد ..

كان حفيف الأغصان ، الذى يتسلل إلى أذنيه خافتًا حذرًا ، يرشده إلى رجلين ، يتسلّلان على جواديهما عبر الدغل ، فجذب معرفة جواده فى رفق ، وهو يهمس :

- قف .. انتظرنى هنا .

ثم وثب يتعلّق بغصن كبير ، وقفز منه إلى آخر ، حمله إلى قمة إحدى الأشجار ، فى خفة مدهشة وهدوء شديد ، وهناك استقرّ جامدًا ساكنًا ، كتمثال من المرمر ، يراقب المكان فى حذر وانتباه ..

ثم لمح الرجلين ..

كانا يتجهان بجواديهما فى حذر ، نحو النقطة التى يختبئ فيها ، ثم توقفا بغتة ، وأشار أحدهما إلى حيث

يقف جواده ، ثم راحا يقتربان منه فى حذر ، و ...

وفجأة ، انقضّ عليهما (فارس) ..

هبط من فوق الشجرة ، ليركل أحدهما فى وجهه ، فى نفس اللحظة التى تعلق فيها بحرملة الثانى ، وجذبه ليسقط من فوق جواده ..

وعلى الرغم من أنه لم يكن يحمل سلاحا ، انقضّ (فارس) على الرجل الأول ، ووثب على متن جواده خلفه ، واستلّ سيف الرجل بحركة سريعة ، وهو يقول :

ـ الرجل لا يتسلّل على هذا النحو إلا ...

قاطعه صوت هادئ وقور :

ـ إلا لو لم يكن يرغب فى أن يراه أحد .

كان الصوت مألوفا ، حتى أن (فارس) التفت إليه فى سرعة ، هاتفا :

ـ مولاى (ابن الأحمر) .

كان أمير (غرناطة) على متن جواده ، يقف وسط الدغل ، فى شموخ واعتداد ، وهو يقول :

ـ هو أنا يا (فارس) .. إنك تثير دهشتى وإعجابى دوما يا فتى ، فعلى الرغم من أننى أحضرت أفضل رجلين من جيش حراسى معى ، وأنا أتسلّل إلى هنا ، إلا أنك كشفت أمرنا ، وهزمتهما كالمعتاد .

نهض الحارس من الأرض ، وهو يقول مرتبكا :

ـ لقد باغتنا يا مولاى ، و ...

قاطعه الأمير فى صرامة :

ـ محاولة التبرير تزيد موقفك سوءا يا رجل ، فلو كان (فارس) خصما ، لما كنت حيا الآن ، لتبرر فشلك فى التسلل إلى مخيمه .

قفز (فارس) من فوق جواد الحارس ، وهو يقول :

ـ أنت على حق يا مولاى ... إنهما يحتاجان إلى مزيد من التدريب ، على يد معلم سلاح لا يشق له غبار .

ابتسم الأمير ، قائلا :

ـ هل تقترح اسما بعينه ؟

انحنى (فارس) أمامه ، قائلا :

ـ مولاى يعرف أكثر منى من يصلح لهذه المهمة .

تنهّد الأمير ، وهو يومئ برأسه إيجابا ، قائلا :

ـ ليته يقبل المهمة يا ولدى .

ثم استعاد صرامته الوقور ، وهو يضيف :

ـ والآن ، قدنى إلى الوزير ، فهناك أمر أحب أن أناقشه معكم .

وانعقد حاجباه ، وهو يستطرد فى حزم :

ـ أمر قد يتوقف عليه مصير مملكة (غرناطة) كلها .

وكان صوته وهو ينطقها ، يحمل رنة عجيبة ..

رنة ألم ..

وأسى ..

* * *

بدا التوتر واضحا ، فى ملامح التاجر اليهودى (إفرام بن إسرائيل) ، وهو يتهادى بجواده ، على مشارف مدينة (غرناطة) ، وعيناه تدوران فيما حوله فى قلق بالغ ، فابتسم معاونه (شيلوك) ، وهو يقول فى خفوت ، تفوح منه رائحة الخبث :

ـ اطمئن يا مولاى .. سيصل فى موعده .

زفر (إفرام) فى توتر زائد ، وهو يقول :

ـ كيف هذا ، وقد تأخر عن موعده بالفعل .. ها هى ذى الشمس تكاد تبدأ رحلة الغروب ، ولم يظهر جواده بعد .

أجابه (شيلوك) بذلك الخبث ، الذى بدا وكأنه جزء من تكوينه الشخصى :

ـ لا تقلق يا مولاى .. الطريق من (بسطة) إلى هنا طويل ، ولا أحد يدرى ماذا حدث هناك .

التفت إليه فى ارتياع ، قائلا :

ـ أتظنه فشل فى مهمته فى (بسطة) ؟

كاد (شيلوك) ينفجر ضاحكا ، وهو يقول :

ـ أنا لم أقل هذا يا مولاى .. ولم أقصده أيضا ، وإنما عنيت أن أداء المهمة هناك لا يرتبط حتما بموعد ثابت .. ربما لم تحن فرصة مناسبة بعد ، ولهذا أعطونا موعدين لاستقباله ، أحدهما الآن ، والآخر صباح الغد .

تنهد (إفرام) فى توتر أكثر ، وهو يقول :

ـ لماذا اختاروا موعدين فى وضح النهار ؟!.. ألم يكن من الأفضل أن يصل ليلا ؟!

تنحنح شيلوك ، قائلا :

ـ معذرة يا مولاى ، ولكن وصوله ليلا أكثر خطورة ، فالعشرات يروحون ويجيئون فى وضح النهار ، ومولاى (بابلو) عربى الملامح كما يقولون ، وهذا يجعل وصوله فى المواعيد العادية أقل إثارة للشبهات والانتباه .

رمقه (إفرام) بنظرة صارمة ، قبل أن يقول فى حدة :

ـ قل لى يا (شيلوك) : لماذا أشعر دائما بأنك تعرف أكثر مما تعلن ؟

انكمش (شيلوك) وأحاط نفسه بغلاف بائس متمسكن : وهو يجيب :

- أنا مجرد عبد من عبيد مولاى .

رمقه (إفرام) بنظرة أخرى ، وهمّ بقول شىء ما ، عندما اعتدل (شيلوك) فجأة ، وهو يشير إلى نقطة ما ، قائلا :

- يبدو أنه وصل يا مولاى .

نجح هذا القول فى جذب انتباه (إفرام) فى شدة ، إلى النقطة التى يشير إليها (شيلوك) ، فاشرأب بعنقه ، ليتطلع بعيدا ، حيث ظهر فارس على جواد أدهم ،يعدو به وسط التلال ، فى طريقه إلى المدينة ..

ولدقائق ، لم ينبس (إفرام) أو (شيلوك) بحرف واحد ، وهما يتابعان ذلك الفارس ، الذى واصل طريقه نحوهما ، حتى توقّف عندهما ، ومسح عرقه بيده ، وهو يبتسم ، قائلا :

- يوم حار .. أليس كذلك ؟

أسرع (إفرام) يجيب فى انفعال :

- بلى ، ولكن برد (غرناطة) أسوأ من حرها فى المعتاد .

اتسعت ابتسامة الفارس ، وهو يقول :

- هذا لو أنها ستشهد بردًا آخر .

ارتجف جسد (إفرام) فى انفعال ، بعد أن تأكّد ، من

العبارات المتبادلة ، والمتفق عليها مسبقا ، أن الواقف أمامه هو نفسه (بابلو دى لوركا) ، رسول ملك (قشتالة) ، فى حين ابتسم (شيلوك) ، وهو ينحنى قليلا ، قائلا :

- مرحبًا بك فى (غرناطة) يا سنيور (بابلو) .

أشار إليه الفارس فى هدوء حازم ، قائلا :

- لا تستخدم هذا الاسم أبدًا يا رجل .. إننى أستخدم هنا اسمًا عربيًّا .

انحنى (شيلوك) مرة أخرى ، قائلا :

- وهل لى أن أعرف ذلك الاسم ، الذى يستخدمه مولاى ؟

شدّ (بابلو) قامته على جواده ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة ، وهو يداعب مجموعة الأسهم فى جعبته ، قائلا :

- ما رأيك فى (سهم) ؟!.. هذا الاسم يروق لى كثيرًا .

ازدرد (إفرام) لعابه ، قبل أن يقول :

- مرحبًا بك فى (غرناطة) يا سيّد (سهم) .. هيا بنا نذهب إلى دارى ، فهناك سيكون الحديث أكثر متعة .

وجذب عنان جواده ، وهو يضيف متوترًا :

- وأكثر أمنا .

جذب (بابلو) نفسا عميقا ، ملأ به صدره القوى ، ثم انطلق مع مرافقيه إلى دارهما ..

وإلى قلب (غرناطة) ..

* * *

« اسمه (بابلو دى لوركا .. » ..

نطق الأمير (ابن الأحمر) العبارة فى حزم ، يمتزج بالكثير من التوتر ، وهو يجلس فى خيمة الشيخ ، مواجها إياه ، مع (فارس) و (مهاب) ، قبل أن يزدرد لعابه ، ويتابع :

- جواسيسنا فى (قرطبة) أخبرونا بأمره ، فهو الحارس الخاص للملك (فرناندو) ، ولقد أرسله إلينا هذا الأخير فى مهمة محدودة .. أن يغتال أكبر ثلاثة من رءوس الحملة الوطنية ، التى تحث الناس على الاتحاد والتآزر ، فى مواجهة العدو القشتالى ، كوسيلة لإضعاف روح التصدى والمقاومة ، وفتح الطريق أمام القشتاليين ، لدخول مملكة (غرناطة) .

سأله الشيخ فى اهتمام :

- كلمة أكبر ثلاثة رءوس هذه ، تجعل ذهنى يقفز إلى ثلاثة أسماء بالتحديد .. الحاج (حسام بن على) ، والشيخ (فاضل القرطبى) ، وشقيقك الأمير (زاهر بن

الأحمر) .. أتظننى أصبت الحقيقة ؟!

أومأ أمير (غرناطة) برأسه إيجابا ، وهو يقول :

- بل أصبت كبدها مباشرة أيها الوزير ، وهذا يؤكد لى أنك مازلت تحتفظ بحصافة ورجاحة عقلك ، التى تميزك منذ أيام الحكم فى (قرطبة) ..

ثم تنهد ، مستطردا :

- الثلاثة الذين أشرت إليهم ، هم بالفعل من تهدف إليهم عملية (بابلو) ، التى أطلق عليها (فرناندو) اسم (رأس السهم) ، باعتبارها وسيلة لشق طريق القشتاليين ، إلى قلب (غرناطة) .

سأله (مهاب) فى قلق :

- وهل تعتقد أن (بابلو) هذا قادر على القيام بمهمته الحقيرة ؟

تنهد الأمير مرة أخرى ، وهو يهز رأسه ، قبل أن يقول فى أسى :

- لم يعد الأمر مجرد اعتقاد للأسف .. لقد نجح (بابلو دى لوركا) فى تنفيذ ثلثى مهمته بالفعل .

انعقد حاجبا (فارس) فى شدة ، وهو يقول :

- هل قضى على رجلين من الثلاثة ؟

أومأ الأمير برأسه إيجابا ، وقال :

- نعم .. لقد قتل الحاج (حسام) منذ يومين ، وتخلص من الشيخ (فاضل) وابنه صباح أمس ، وبعدها فقدنا أثره .

أشار الشيخ بيده ، قائلا :

- لا ريب أنه فى طريقه الآن إلى هنا ، ليظفر بالأمير (زاهر) .

قال الأمير فى حسم :

- أو أنه وصل بالفعل .

سأله (فارس) فى اهتمام :

- لماذا لا تضعون حراسة على أبواب (غرناطة) ، وتطلقون رجالكم للبحث عِنه واعتقاله ؟

واندفع (مهاب) يقول :

- وتحيطون مولاى الأمير (زاهر) بحراسة مكثفة ، فى الوقت ذاته .

هزّ الأمير رأسه ، قائلاً :

- الأمور لا تسير بهذه البساطة ، ولو سألتم الوزير ، لأيّد قولى هذا ، فنحن أولاً نجهل كيف يبدو (بابلو) هذا ، ثم إن البحث عنه يستلزم مضاعفة الدوريات ، وتفتيش الديار الآمنة ، مما سيثير موجة من القلق والفزع عند الناس ، وهذا آخر ما نرغب فى إثارته ، والعدو يتربّص بنا ، أما عملية حماية الأمير (زاهر) ، وإحاطته بحراسة كافية ، فهى مهمة أكثر صعوبة ومشقة .

سأله (مهاب) فى دهشة :

- وكيف هذا ؟

أجابه الأمير :

- لأن شقيقى الأمير (زاهر) رجل عنيد ، لا يمكنك إقناعه قط بالتزام قصره ، وهو يصرّ على أن إحاطته بالحراسة أمر مرفوض ؛ لأنه يصنع حاجزاً بينه وبين الناس ، ويمنعه من أن يلقى عليهم خطبه الحماسية ، أو يستمع إلى آرائهم وشكاواهم .

قال (مهاب) فى حيرة :

- حتى وهو يعلم أنه مهدّد بالاغتيال ؟

تنهّد الأمير ، وهو يهزّ رأسه ، قائلا :

- ألم أقل لك : إنه رجل عنيد ؟!

ران على الخيمة صمت قصير ، استغرق دقيقة أو أقل قليلا ، قبل أن يميل الشيخ نحو الأمير ، ويسأله فى حزم :

- ما الذى يطلبه منا مولاى ، فى هذا الشأن ؟

صمت الأمير لحظة ، قبل أن يتراجع ، قائلا :

- إننى أنشد تعاونكم معى كالمعتاد .

همّ الشيخ بقول شىء ما ، لولا أن استدرك الأمير فى سرعة :

- ولكن على نحو مختلف هذه المرة .

تبادل الثلاثة نظرة سريعة ، قبل أن يقول الشيخ برصانته المعهودة :

- كيف يا مولاى الأمير ؟

اعتدل الأمير ، مجيبا فى اهتمام :

- أريد أن يتولى (مهاب) مهمة حراسة الأمير (زاهر) وتأمينه ، وأن تشاركنى أنت أيها الوزير مهمة دراسة وتفنيد الموقف القشتالى ، الذى دفع (فرناندو) إلى القيام بهذه الخطوة الجريئة ، والنتائج التى يتوقع الوصول إليها عسكريًا ، لو نجحت عملية اغتيال الأمير (زاهر) ، وكيفية التصدى لها ، لو نجح (بابلو) فى هذا لا سمح الله (سبحانه وتعالى) .

ثم استدار إلى (فارس) ، قائلا :

- أما أنت ، فسأسند إليك المهمة الرئيسية يا فتى .

وانعقد حاجباه فى حزم ، وهو يضيف :

- سيكون عليك أن تنطلق فى قلب (غرناطة) ، للبحث عن ذلك القاتل وإيقافه ، قبل أن ينجح فى تنفيذ مهمته .

ووضع يده على كتف (فارس) ، مستطردًا :

- وهذا يعنى أنك أملنا الوحيد ، بعد الله (سبحانه وتعالى) ، فى فشل خطة القشتاليين ، والقضاء على الرأس .

واكتسى صوته بصرامة بلا حدود ، مع إضافته الحاسمة :

- رأس السهم .

وكانت البداية ..

* * *

٢ - ثمن الدم ..

لم يكد الليل يرخى سدله ، على قصر اليهودى (إفرام) ، حتى تسلل (شيلوك) فى خفة إلى جناح الضيافة ، الذى احتله الفارس القشتالى (بابلو) ، ودق بابه ثلاث دقات فى حذر ، والتصق بالجدار ، وهو يدير عينيه فيما حوله فى قلق ، خشية أن يلمحه أحد ، حتى فتح (بابلو) باب جناحه ، وألقى عليه نظرة ساخرة ، قائلا :

- إذن فقد انتقلت إليك عدوى الخوف من سيدك .

أسرع (شيلوك) يدخل الجناح ، قائلا :

- الحذر أفضل من الخطأ يا رجل .

أغلق (بابلو) الباب خلفهما ، وهو يسأله :

- كيف تسير أمورك هنا ؟

استعاد (شيلوك) ابتسامته الماكرة ، وهو يجيب :

- كل شىء على ما يرام .. لقد أصبحت المستشار الأول لمولاى ، ولم يعد يستطيع إنجاز شىء ما دون استشارتى .

وافقه (بابلو) بإيماءة من رأسه ، قائلا :

ـ لقد لاحظت ذلك .. إنه لا يشك لحظة واحدة فى أنك جاسوس قشتالى .

أشار (شيلوك) بسبابته ، قائلا :

ـ وخاصة أننى يهودى مثله .

رمقه (بابلو) بنظرة خاوية ، قبل أن يقول :

ـ وماذا عن قصر الأمير (زاهر) ؟

برقت عينا (شيلوك) ، وهو يجيب :

ـ كل شىء على ما يرام هناك أيضًا .

ثم مال نحوه ، مستطردًا فى لهجة خبيثة ، وصوت أقرب إلى الهمس :

ـ ابنة عمى (راشيل) تعمل فى قصر الأمير (زاهر) ، ولقد أنبأها جدها بوجود سرداب خفى ، فى أحد أروقة القصر ، يقود إلى خارج أسواره ، وهى وحدها تعرف سر ذلك السرداب ، وستقودك عبره إلى القصر ، وهناك سترشدك إلى حجرة الأمير ؛ لتتم مهمتك .

أومأ (بابلو) برأسه ، قائلا :

ـ عظيم .. يبدو أن مهمتى ستنتهى بسرعة .. هيا بنا إذن ، لنجتث عنق أميركم المناضل هذا ، حتى أعود لأبشر مولاى بقرب النصر .

قال (شيلوك) فى سرعة :

ـ رويدك يا سنيور (بابلو) .. لن يمكننا أن نفعل هذا الليلة .

انعقد حاجبا (بابلو) فى غضب ، وهو يقول :

ـ ولماذا ؟!

أجابه (شيلوك) ، وهو ينكمش فى مذلة ، ليس لها ما يبررها :

ـ (راشيل) تعمل فى خدمة الأميرات الصغيرات الليلة ، ولن يمكنها إيجاد حجة للخروج من القصر .

سأله (بابلو) فى حدة :

ـ ومتى تجد هذه الحجة ؟!

هز كتفيه ، قائلا :

ـ ربما ليلة غد .

مط (بابلو) شفتيه فى حنق ، ثم قال فى صرامة :

ـ فليكن يا (شيلوك) .. سأمنحك وابنة عمك فرصة لليلة واحدة ، وبعدها سيكون عليكما إما أن تنفذا وعدكما ، وتدخلانى إلى القصر ؛ لأنهى مهمتى ، أو ...

وأشار إلى عنقه ، مستطردًا :

ـ أو أجد لمهمتى بديلاً .. أعنى بديلين .

شحب وجه (شيلوك) ، وارتجفت أطرافه ، وهو يقول :

- ستدخل القصر غدا يا سنيور (بابلو) ، بعد منتصف الليل .

وانكمش فى مكانه ، مضيفًا :

- هذا وعد .

قالها ، واندفع يغادر جناح القشتالى ، وجسده يرتجف أكثر ..

وأكثر .

* * *

لم تتوقف الحركة لحظة واحدة ، فى قصر الأمير (زاهر) ، فى تلك الليلة ، مع التعديلات التى يجريها (مهاب) فى نظم وأساليب الحراسة ، لتأمين القصر ، وحماية صاحبه ، حتى أن قائد الحرس شعر بالحنق والسخط ، مع اقتراب الفجر ، فهتف ثائرًا :

- لست أفهم سر هذا التوتر .. إننا نقوم على حراسة هذا القصر ، منذ سنوات وسنوات ، دون أن تحدث فيه حادثة واحدة ، فما الذى استجدّ الآن ؟

واجهه (مهاب) فى صرامة ، قائلا :

- الذى استجد الآن ، هو أننى صرت مسئولاً عن الأمن هنا يا رجل ، وأنك مضطر لطاعة أوامرى ، وتنفيذها دون مناقشة .. هل تفهم ؟!

قال الرجل فى غضب :

- ولماذا تتولى أنت مسئولية الأمن هنا ؟.. من تكون ؟.. وما الذى استدعى وجودك ؟!

شدّ (مهاب) قامته ، وهو يقول فى صرامة :

- لو أنك تجهلنى ، فالسيف والقوس والنشاب تعرفنى ، وتخضع لى مختارة ، لأضرب بها صدور وأعناق الأعداء ، ومجنّى هو المصدّ الأوّل لهجماتهم ، والمدافع الأكبر عن كل من يحتمى به .

وانعقد حاجباه ، وهو يضيف فى شدة :

- أنا (مهاب) .. قائد فرسان أمير (قرطبة) السابق .

شهق قائد الحرس ، هاتفًا :

- القائد (مهاب) ؟!

ودون أن يدرى ، وجد نفسه ينحنى أمام (مهاب) فى احترام ، مستطردًا :

- اغفر لى يا قائدى .. لو أننى أعلم ..

قاطعه (مهاب) ، وهو يمنعه من الانحناء ، قائلا :

- عفوًا يا رجل .. لا تنحن إلا لله (سبحانه وتعالى) .. أنا لم أقصد زهوًا أو تفاخرًا ، وإنما أردت منك أن تعلم أننى لست هاويًا أو متحذلقًا .

هتف الرجل :

- هاويا ؟!.. أستغفر الله أيها القائد .. صحيح أننى لم أعمل معك قط ، إلا أنهم يتناقلون بطولاتك كالأساطير .

ثم مال نحوه ، يسأله فى اهتمام :

- ولكن اسمح لى يا سيد (مهاب) .. هل يمكننى أن أعرف سر كل هذه الإجراءات الاستثنائية .

صمت (مهاب) لحظة ، ثم أجابه فى حزم :

- الواقع أنه هناك محاولة لاغتيال مولاك (زاهر) .

هتف فى دهشة :

- اغتيال ؟!.. رباه !.. ومن يقدم على فعل حقير كهذا ؟

أجابه (مهاب) :

- فارس قشتالى ، يُدعى (بابلو دى لوركا) ، أرسله الملك (فرناندو) خصيصًا لأداء المهمة ، ولقد نجح بالفعل فى اغتيال آخرين .. الحاج (حسام بن على) ، والقاضى (فاضل القرطبى) ، و ...

بتر عبارته بغتة ، وانعقد حاجباه فى شدة ، فقفزت يد قائد الحرس إلى مقبض سيفه ، قائلا فى توتر :

- ماذا حدث أيها القائد ؟

أشار إليه (مهاب) ، قائلا :

- يخيّل إلىّ أن أحدهم يتجسس علينا .

ثم استلّ سيفه ، واندفع نحو ستارة سميكة ، فأزاحها بسرعة ، ولمح شخصا يختفى فى نهاية الممر ، فهتف :

- كنت على حق .

وانطلق يعدو نحو نهاية الممر ، ولكنه لم يكد يبلغها ، حتى توقف حائرًا محنقًا ، فقد كانت هناك أربعة أبواب مغلقة فيه ، وسلمان فى نهايته ، كل منهما يقود إلى جناح من جناحى هذا الجانب من القصر ..

وكان الهدوء يخيّم على المكان كله ، عندما لحق به قائد الحرس ، وهو يمسك سيفه بدوره ، قائلا :

- هل أمسكت به ؟

أجابه (مهاب) ، وهو يندفع نحو أحد السلّمين :

- لقد اختفى هنا .. ابحث عند السلّم الآخر .

فحصا المكانين فى اهتمام ، قبل أن يقول قائد الحرس فى غضب :

- لا يوجد له أثر هنا .

اعتدل (مهاب) ، قائلا :

- ولا هنا .. من الواضح أنه اختفى خلف أحد هذه الأبواب .

أمسك به قائد الحرس ، قائلا فى حزم :

ـ لا يمكنك البحث عنه هناك ، فهذه حجرات الحريم ، والأميرات الصغيرات .

صمت (مهاب) لحظة ، وهو يدير عينيه في الأبواب الأربعة ، قبل أن يغمغم :

ـ أهو الفضول الأنثوى أم ..

لم يتم عبارته ، وإنما راح يدرس الأمر فى ذهنه بضع لحظات ، قبل أن يقول فى حسم :

ـ فليكن .. هيا بنا يا رجل ؛ لنستكمل إجراءات الأمن .

وانصرف مع قائد الحرس من المكان كله ، فى نفس الوقت الذى ارتفعت فيه دقات قلب امرأة ، تختفى خلف أحد الأبواب المغلقة ..

امرأة تُدعى (راشيل) ..

* * *

لم تكن الشمس قد بزغت فى الأفق بعد ، على الرغم من ذلك الضوء المتلوّن الجميل ، الذى اصطبغت به السماء هناك ، عندما تعالى وسط تلال (غرناطة) وقع حوافر جواد قوى ، لم يلبث أن برز من وسط دغل قريب ، وعلى متنه فارس شاب ، يمتطيه دون سرج أو لجام ، وينطلق به فى رشاقة مدهشة ، جعلتهما معًا صورة للفتوة والقوة فى ذلك العصر ..



لقد كانت هناك أربعة أبواب مغلقة فيه ، وسلّمان فى نهايته ، كل منهما يقود إلى جناح من جناحى هذا الجانب من القصر ..

وعلى قمة تل قريب من الدغل ، توقف الفارس مع جواده الأبيض ، ودار حول نفسه لحظات ، ليطبع صورة شاملة للموقع فى ذهنه ، قبل أن يربت على عنق الجواد ، مغمغمًا :

- رويدك يا (رفيق) .. إنه هنا حتمًا ، فى مكان ما .. الشيخ أكد لى هذا .

ودار بعينيه مرة أخرى فى المكان كله ، قبل أن يرفع رأسه إلى أعلى ، ويحيط فمه براحتيه ، ثم يطلق صيحة طويلة ، أشبه بعواء (ابن آوى)(*) ..

ولدقيقة أو يزيد ، بعد أن أطلق صيحته ، ران على المكان كله سكون رهيب مهيب ..

ثم انطلقت صيحة شبيهة ..

ولكنها أكثر قوة ..

وفى حركة سريعة ، التفت (فارس) إلى مصدر تلك الصيحة الجديدة ، وهو يهتف فى حماس :

- أرأيت يا (رفيق) .. إنه هنا بالفعل .

(*) ابن آوى : حيوان ثديى ليلى ، من جنس (كانس) ، يتبع فصيلة الكلبيات ، ويشبه الذئب ، ولكنه أصغر منه حجمًا ، يتغذى بالجيف والنبات والحيوان ، ويستوطن جنوب شرق (أوروبا) ، و(آسيا) ، و (إفريقيا) ، والنوع الأخير هو الموجود فى (مصر) ، والذى يعرف خطأ بالذئب .

ومع آخر حروف كلماته ، برز الفارس الآخر من وسط الدغل .

فارس زنجى ، على متن جواد قوى شديد السواد ، انطلق على الفور نحو التل نفسه ، ولم يكد يبلغ قمته ، حتى قفز عن صهوة جواده ، وانحنى أمام (فارس) ، الذى هتف فى سعادة ، وهو يمسك كتفيه ، ليعاونه على النهوض :

- (فهد) .. يا لسعادتى لرؤيتك !.. كيف حالك يا أخى !

ابتسم (فهد) فى صمت ، وهو يربت على كتفى (فارس) بدوره ، والسعادة واضحة فى ملامحه ، فابتسم (فارس) ، قائلا :

- صامت كعادتك يا (فهد) .. يبدو أن الصمت قد التصق بك طويلاً ، حتى صار جزءًا من شخصيتك وتكوينك .

تطلع (فهد) إلى عينيه فى صمت ، دون أن يعلق على قوله ، فربت (فارس) على كتفه مرة ثانية ، وكأنه يتفهم الوضع ، ثم قال فى جدية :

- عندى مهمة لك يا (فهد) .

انعقد حاجبا الزنجى القوى فى اهتمام واضح ، فتابع (فارس) :

- القشتاليون أرسلوا واحدًا من فرسانهم ، ليغتال عددًا من قادتنا ، ولقد نجح بالفعل فى قتل اثنين من أفضل قادتنا .. الحاج (حسام) ، والقاضى (فاضل) .

امتزج الغضب بالعزم ، فى عينى (فهد) ، دون أن يفصح لسانه عما يعتمل فى نفسه ، و (فارس) يتابع :

- وهو الآن فى (غرناطة) ، لاغتيال الأمير (زاهر ابن الأحمر) .

اعتدل (فهد) ، وقبضت يده على مقبض سيفه فى صرامة ، فأشار إليه (فارس) ، قائلا :

- لا يا (فهد) .. مثل هذه الأمور لن تحلّ بالقوة وحدها ، فذلك القشتالى يختبئ فى مكان ما ، فى قلب (غرناطة) ، ونحن نجهل ملامحه ، والمكان الذى يختفى فيه ، والوسيلة التى ينوى استخدامها لاغتيال الأمير ، وكل ما نملكه هو أن نحيط بالأمير ، وننتظر حتى يستعد ذلك القشتالى ، ويضرب ضربته ، حتى نوقع به .

ثم تنهّد فى عمق ، مستطردًا :

- وأنا لا أشعر بالارتياح لهذا الأسلوب يا (فهد) ، فأنا أميل للهجوم ، وليس للدفاع .

وافقه (فهد) بإشارة حازمة من رأسه ، فتابع (فارس) فى حسم :

- لذا فقد قرّرت البحث عن ذلك القشتالى ، فى كل مكان من (غرناطة) .. فى كل قصر ، ودار ، وشارع .. حتى فى الأسواق ودور اللهو ..

ثم رمق (فهد) بنظرة طويلة ، قبل أن يقول :

- وهذا يحتاج إلى شبكة اتصالات واسعة للغاية يا (فهد) .. شبكة ترتبط بالجنود ، والحراس ، والخدم ، والباعة ، والتجار .

وجذب نفسًا عميقًا من الهواء النقى ، قبل أن يضيف :

- باختصار .. أحتاج إلى اتصالاتك الداخلية يا (فهد) .

صمت (فهد) لحظات ، وملامحه الجامدة لا تشف عن أى شىء مطلقًا ، ثم انفرجت شفتاه فى مبادرة نادرة الحدوث ، وانبعث من بينهما صوت قوى عميق ، يقول فى اقتضاب شديد :

- اتبعنى .

قالها الزنجى القوى ، ووثب إلى صهوة جواده الأسود ، وانطلق به نحو المدينة ، ومن خلفه (فارس) ، على متن جواده الشاهق البياض ..

لقد بدأت المواجهة ..

المواجهة الحقيقية ..

* * *

استيقظ (بابلو) مع مشرق الشمس ، ونهض يلتقط نفسًا عميقًا من الهواء النقى ، عند شرفة حجرته ، قبل أن يبتسم فى سخرية ، قائلا :

ـ منعش هو هواء (غرناطة) .. يبدو أن هذا سر تمسُّك العرب بها .

لم يكد ينتهى من كلماته ، حتى سمع طرقات هادئة على باب جناحه ، فالتفت إليه ، قائلا فى صوت قوى :

ـ ادخل يا من بالباب .

دلف (شيلوك) إلى الحجرة ، بصحبة خادمة جميلة ، تحمل طعام الإفطار ، على صينية من الفضة ، وانحنى (شيلوك) ، حتى كادت جبهته تصطدم بالأرض ، وهو يقول :

ـ تحية لمولاى (سهم) .. لقد أعددنا إفطارًا شهيًا ، نرجو أن ينال رضاك .

ثم اعتدل يشير للخادمة فى حزم ، فوضعت الصينية فى موضعها ، وانصرفت فى خطوات سريعة ، وأغلقت الباب خلفها ، فقال (بابلو) ساخرًا :

ـ لست أظنك هنا من أجل صينية طعام .

ابتسم (شيلوك) ابتسامته الخبيثة ، وهو يقول :

ـ من الواضح أن مولاى حاد الذكاء .

سأله (بابلو) ، وهو يبدأ فى تناول طعام إفطاره :

ـ ماذا لديك هذه المرة ؟

انحنى (شيلوك) مرة أخرى ، قائلا :

ـ (راشيل) رهن إشارتك يا مولاى ، وستنتظرك عند الركن الشرقى لأسوار القصر ، فى تمام منتصف الليل .

قال (بابلو) فى هدوء ، وإن حملت عيناه بريق ظفر واضح :

ـ عظيم .. يمكننى العودة غدًا إذن .

وهنا رفع (شيلوك) سبّابته ، قائلا :

ـ ولكن ...

لم يزد على هذه الكلمة ، ولكن اللقمة توقّفت فى حلق (بابلو) ، وهو يقول فى حدة :

ـ ولكن ماذا ؟!

قالها ، وسعل بشدة ، واحتقن وجهه قليلاً ، فأسرع (شيلوك) يناوله قدح الماء ، ولكنه ضرب يده فى حدة ، قائلا :

ـ ولكن ماذا يا رجل ؟!.. هات ما لديك .. هيا .

تنحنح (شيلوك) ؛ ليضفى أهمية على حديثه ، قبل أن ينحنى نحو (بابلو) ، هامسًا :

ـ لقد كشفوا أمرك .

انعقد حاجبا (بابلو) فى شدة ، و(شيلوك) يقول :

- (راشيل) سمعت قائد الأمن الجديد ، يتحدث مع قائد الحرس أمس ، وكان حديثهما عنك ، وعن محاولتك لاغتيال الأمير (زاهر) .

ازداد انعقاد حاجبى (بابلو) ، وهو يقول :

- حقًا ؟!

تابع (شيلوك) فى سرعة :

- (راشيل) تقول : إن قائد الأمن الجديد صارم وحازم للغاية ، وأنه أجرى تعديلات عديدة فى نظم الحراسة ، طوال ليلة أمس ، ووضع حراسًا فى كل ممر ، وأمام كل باب ، ولم يعد من الممكن دخول القصر ، وإنهاء مهمتك فيه .

صمت (بابلو) لحظات ، وهو يفكر فى عمق ، قبل أن يسأله :

- ومن قائد الأمن الجديد هذا ؟

أجابه (شيلوك) فى خبث :

- إنه (مهاب) .. قائد فرسان أمير (قرطبة) السابق .

ارتفع حاجبا (بابلو) فى دهشة ، هاتفًا :

- (مهاب) ؟!.. أما زال على قيد الحياة !

وصمت لحظات ، وهو يحك ذقنه بسبابته وإبهامه ، قبل أن يقول :

- فى صباى ، وفى أثناء تدريباتى الأولى ، كانوا يضربون لنا المثل ، فى الشجاعة والقوة والبأس ، بذلك الرجل (مهاب) ..

وعاد إلى صمته مرة أخرى ، ثم التفت إلى (شيلوك) ، وقال فى حزم :

- قل لى : هل يمكن لابنة عمك هذه ، أن تحصل على أحد أزياء الحرس ؟

ابتسم (شيلوك) بخبثه المعتاد ، قائلا :

- هذا الأمر لا يحتاج إلى ابنة عمى ، أنا يمكننى توفير الزى .

قال (بابلو) :

- عظيم .. أريد الزى هنا ، قبل غروب الشمس ، ولتنتظرنى ابنة عمك فى نفس الزمان والمكان .

تضاعفت جرعة الخبث والدهاء ، فى ابتسامة (شيلوك) ، وهو يقول :

- ولكن الحصول على مثل هذا الزى يحتاج إلى بعض المال .

التفت إليه (بابلو) بنظرة غاضبة ، لم تلبث أن تحولت إلى ابتسامة ساخرة ، وهو يقول :

- بالطبع .. كل شىء فى حياتك يحتاج إلى المال .

والتقط من حزامه صرة نقود، ألقاها إلى (شيلوك)، قائلا فى لهجة شديدة الصرامة:

- أريد الزى قبل غروب الشمس.

التقط (شيلوك) صرة النقود فى لهفة وشراهة، وتقاذفها بين راحتيه؛ ليشنّف أذنيه برنين الذهب، قبل أن ينحنى فى قوة، وهو يتراجع بظهره إلى الباب، هاتفًا:

- كما تأمر يا مولاى .. كما تأمر ..

وأسرع يغادر الجناح، قبل أن يتراجع (بابلو) فى قراره، ويطالبه باسترداد ذهبه، فى حين مطّ هذا الأخير شفتيه فى ازدراء، وبصق خلفه، قائلا:

- افرح ما شئت أيها الحقير، فكل ذهب (بابلو) سيعود إليه.

ثم استعاد ابتسامته الساخرة، مضيفًا:

- بعد منتصف الليل.

واتسعت ابتسامته، حاملة كل الثقة.

وكل الشر.

* * *

٤ - الطعنة ..

لم يكن البحث عن القشتالى أبدًا بالمهمة السهلة، فى مدينة كبيرة، ذات أسواق ضخمة، مثل مدينة (غرناطة)، يفد إليها مئات من التجار والمشترين يوميًا ..

وعلى الرغم من شبكة الاتصالات الواسعة لـ (فهد)، كانت المعلومات باهتة وقليلة للغاية، حتى كاد اليأس يتملّك (فارس)، لولا أن أحضر إليه (فهد) أحد خدم قصر (إفرام بن إسرائيل)، الذى قال:

- نعم .. لقد استقبل مولاى ضيفًا أمس.

قال له (فارس) فى اهتمام:

- صف لنا هذا الضيف.

التقى حاجبا الرجل، وكأنما يركّز أفكاره، وهو يجيب:

- إنه قوى البنيان، ممشوق القامة، عريض المنكبين، فى الخامسة والعشرين، أو السادسة والعشرين من العمر، يرتدى ثيابًا عربية، ولكنه يتمنطق بسيف كبير، له غمد فاخر، ويحمل على ظهره

قوسا وجعبة نشاب ، ويمتطى جوادًا أدهم .

التفت (فارس) إلى (فهد) ، هاتفًا فى حماس :

- إنه هو دون شك .

أمسك (فهد) مقبض سيفه فى قوة ، وانعقد حاجباه فى صرامة ، فى حين سأل (فارس) الخادم فى انفعال :

- وأين يقيم ضيف مولاك هذا ؟

أجابه الخادم بسرعة :

- فى الجناح الشرقى للقصر ، ولكنه الآن بصحبة مولاى (إفرام) ، فى ساحة القصر ، حيث اللهو والمرح .

ربّت (فارس) على كتفه فى حرارة ، قائلا :

- أشكرك يا رجل .. أشكرك كثيرًا .

ثم أشار إلى (فهد) ، مستطردًا فى حزم :

- هيّا بنا .

وثبا على صهوة جواديهما ، وانطلقا معًا إلى قصر (إفرام) ، و (فارس) يقول فى حماس :

- تولَّ أنت أمر حراس القصر ، واترك لى ذلك الفارس .

لم يعلّق (فهد) على العبارة ، وإن انعقد حاجباه لحظة ، قبل أن يستعيد وجهه جموده ، ويواصل انطلاقه

إلى جوار (فارس) ، حتى بلغا قصر (إفرام) ، فترجّلا عن جواديهما ، وتقدّم (فارس) نحو حرّاس البوّابة ، قائلا فى صرامة :

- أخبروا مولاكم أننا نرغب فى مقابلته على الفور ، باسم الأمير (ابن الأحمر) .

كان (شيلوك) يعبر البوّابة ، فى هذه اللحظة ، ولم يكد يسمع قول (فارس) ، حتى التفت إليه بحركة حادة ، واتسعت عيناه فى هلع ، ثم عاد أدراجه ، وانطلق يعدو إلى داخل القصر ..

ولمْ يغب هذا التصرُّف عن عينى (فارس) و (فهد) ، فاستلّ الأخير سيفه فى حركة سريعة قوية ، فى حين تجاوز الأوّل الحرّاس بقفزة مباغتة ، هاتفًا :

- توقّف يا رجل .

تحرّك الحراس الخمسة فى آن واحد ، للتصدّى للرجلين ، ولكن (فهد) انقضّ عليهم كالوحش ، وهو يطلق صرخة عظيمة ، ارتجفت لها الدماء فى عروقهم ، قبل أن يهوى سيفه على صدورهم وأعناقهم ..

أما (فارس) ، فقد تجاهل ذلك الصراع العنيف عند البوّابة ، واستلّ سيفه بدوره ، وهو يعدو محاولاً اللحاق باليهودى (شيلوك) ، قبل أن يحذّر القشتالى ، ولكن هذا الأخير صرخ :

- احترس يا سيِّد (سهم) .. احترس .

ومع صرخته ، اندفع اثنان من رجال القصر ، يعترضان طريق (فارس) بسيفيهما ، فاستقبلهما بسيفه فى حزم ، وهوى به على عنق أحدهما ، ثم استدار يستقبل سيف الثانى على نصل سيفه ، ووثب يركله بقدمه فى صدره ، هاتفًا :

- لا وقت عندى لملاقاتك الآن .

تشبَّث الرجل بقدمه ، فهوى عليه بسيفه ، صائحًا :

- فليكن .. أنت أردت هذا .

ثم انطلق يواصل مطاردته لليهودى (شيلوك) ، فى حين استقبل (بابلو) تحذير هذا الأخير ، وهو يجلس مع (إفرام) ، فشهق التاجر رعبًا ، وصرخ :

- لقد كشفوا أمرنا .. يا ويلتى !!.. خسرت كل شىء .

أما (بابلو) ، فانتفضّ فى حزم ، وألقى لثامه على وجهه ، وهو يستلّ سيفه ، قائلا :

- اصمد يا رجل .. لم نخسر شيئًا بعد .

لم يكد ينطقها ، حتى اقتحم (شيلوك) المكان ، وخلفه (فارس) ..

وقبل أن يطلق (شيلوك) صيحة واحدة ، انتقى

(فارس) خصمه من بين الرجلين ، وأدرك أن اللثام يخفى الجاسوس حتمًا ، فانقضّ عليه ، صائحًا فى صرامة :

- فشلت خطتك أيها القشتالى .

ولكن (بابلو) استقبل السيف بسيفه ، هاتفًا فى سخرية :

- ألست تسبق الفعل بالقول أيها العربى .

ارتفع صليل سيفيهما ، وهما يلتقيان ويتباعدان ، فى مبارزة مدهشة ، تشفّ عن قوة كل منهما وبراعته ، وقلبه الذى لا يعرف الخوف ..

ومع تبارزهما ، اتجها على نحو تلقائى ، إلى السلم الرخامى ، الذى يقود إلى الطابق العلوى للقصر ، فقفز إليه (بابلو) ، وهو يضرب بسيفه ، هاتفًا :

- يبدو أننى مضطر لأن أشهد لك بالبراعة أيها العربى ، فبنو قومك لا يصمدون أمامى كل هذا الوقت فى المعتاد .

وثب (فارس) نحوه ، وسيفه ينقض فى مهارة ، وهتف :

- هذا لأنك لم تلتق بالفرسان منهم .

اعتلى (بابلو) بضع درجات أخرى من السلم ، وهو

يطلق ضحكة ساخرة ، قائلا :

- من قال هذا يا فتى ؟.. القبور مليئة بفرسانكم ، الذين واجهونى سيفًا لسيف .

قفز (فارس) خلفه ، وهو يضرب سيفه ، هاتفًا :

- سأرسلك إليهم إذن ، فرفاقك هناك بانتظارك .

أدرك (بابلو) أن خصمه ليس هينًا ، وأن المبارزة قد لا تنتهى لصالحه على الأرجح ، وخاصة عندما شاهد (فهد) ، وهو يقتحم القاعة بسيفه ، الذى يسيل من نصله نهر من الدم ، فهتف :

- يبدو أننا لن نكمل حديثنا الممتع هذا أيها العربى ، فأنا مضطر للرحيل فورًا .

قالها ، وانطلق يقفز درجات السلم بأقصى سرعته ، صاعدًا إلى الطابق العلوى ، فهتف (فارس) ، وهو يشير إلى السلم الآخر :

- (فهد) .. امنعه من الفرار .

ثم انطلق خلفه ، وأدهشه أن أطلق القشتالى صفيرًا قويًا ، قبل أن يبلغ الطابق الثانى ، وجرى بكل قوته نحو أقرب شرفة ، ثم استدار يستقبل سيف (فارس) ، هاتفًا :

- ما هذه البراعة أيها العربى .. لا أحد يمكنه اللحاق بى فى المعتاد .

ثم اندفع نحو (فارس) فى عنف مباغت ، اضطر معه هذا الأخير للتراجع بضع خطوات ، فتراجع (بابلو) بدوره ، ثم وثب إلى حاجز الشرفة ، وأطلق ضحكة ساخرة ، قائلا :

- إلى اللقاء أيها العربى .

اندفع (فارس) نحوه بسيفه فى قوة ، ولكن القشتالى وثب فى رشاقة ، وترك جسده يهوى من الطابق الثانى ، وضحكته الساخرة تجلجل فى المكان ، فوثب (فارس) نحو النافذة ، و ...

وانعقد حاجباه فى غضب هادر ..

لقد رأى (بابلو) يقفز إلى صهوة جواده ، الذى استجاب لصفيره ، ووقف أسفل الشرفة مباشرة ..

ولم يكد الفارس يستقرّ على جواده ، حتى انطلق الجواد مبتعدًا فى سرعة ورشاقة ، واختفى عند ناصية الشارع ..

وأطلق (فارس) صفيره بدوره ، فانتفض جواده عند باب القصر ، وأطلق صهيلاً قويًا ، وهو يضرب الهواء بقائمتيه ، ثم انطلق يعدو نحو مصدر الصفير ..

ووثب (فارس) من الشرفة بدوره ..

واتسعت عيون المارة فى ذهول ..



وترك جسده يهوى من الطابق الثانى ، وضحكته الساخرة تجلجل فى المكان ..

لقد رأوا الفارس القشتالى يثب إلى جواده ، الذى ينتظره تحت الشرفة ، وامتلأت نفسهم بالدهشة والإعجاب ، لرشاقة الفارس وقوة الجواد ..

أما فى هذه المرة ، فكان المشهد يختلف ..

لقد وثب (فارس) من الشرفة ، قبل أن يبلغها (رفيق) ، الذى زاد من سرعته ، وقفز فى الهواء ، ليستقبل فارسه ، فى توافق مذهل ، وتزامن ما له من مثيل ، ثم يواصل انطلاقته دون توقف ، و (فارس) يقبض على معرفته بأصابعه فى قوة ، هاتفًا :

ـ أسرع خلفه يا (رفيق) .. أسرع .

انتقل حماس الفارس إلى جواده ، فانطلق ينهب الأرض نهبًا ، فى محاولة للحاق بالقشتالى ، ولكن ..

وآه من كلمة (لكن) !

لم يكن هناك أثر لذلك القشتالى ..

لقد اختفى وسط طرقات (غرناطة) ..

اختفى تمامًا ..

* * *

« ولم يختف وحده .. »

نطق (فارس) العبارة فى غيظ ، وهو يروى ما حدث للأمير (ابن الأحمر) والشيخ ، وازدرد مرارته مع

لعابه ، قبل أن يستطرد :

ـ فعندما فقدت أثـر ذلك القشتالى ، عدت إلى قصر (إفرام بن إسرائيل) ، ووجدت أن (فهد) قد ألقى القبض عليه وعلى رجاله ، فيما عدا اليهودى الخبيث (شيلوك) ، الذى حذّر القشتالى .. لقد اختفى تمامًا أيضًا ، وكأنما انشقت الأرض وابتلعته .

قال الأمير فى ضيق :

ـ لا ريب أنه فرّ منذ الدقائق الأولى للقتال ؛ فأمثاله لا يجازفون بأرواحهم قط .

قال (فارس) فى شىء من الحدة :

ـ ولكن أين اختفى ذلك القشتالى ؟!.. لقد انطلقت خلفه بعد زمن قصير ، ولم أجد له أثرًا .

أجابه الشيخ فى رصانة :

ـ هناك عميل آخر للقشتاليين فى المنطقة .

قال (فارس) فى دهشة :

ـ كيف ؟!.. (إفرام) كان اليهودى الوحيد فى المنطقة .

رفع الشيخ رأسه إليه ، قائلاً :

ـ الخيانة لا تقتصر على اليهود وحدهم يا ولدى .

هتف (فارس) مستنكرًا :

ـ ربَّاه !.. هل تعتقد أنه من الممكن أن يخوننا عربى ؟!

زفر الشيخ فى أسف ، قبل أن يقول فى مرارة :

ـ كيف تظننا خسرنا (قرطبة) إذن ؟

اتسعت عينا (فارس) فى ارتياع ، فى حين أومأ الأمير برأسه موافقًا ، وهو يغمغم آسفًا :

ـ أنت على حق أيها الوزير .. أنت على حق .

ابتلع (فارس) انفعاله ، وهو يسأل :

ـ لو أنه يختفى فى هذا المكان ، ألا يمكننا تفتيش المنطقة كلها ، و ...

قاطعه الأمير فى حزم :

ـ هذا مرفوض تمامًا ، فقد سبق أن أخبرتكما أن هذا كفيل بإثارة ذعر وقلق لا مبرر لهما .

قال (فارس) فى ضيق :

ـ كيف نعثر عليه إذن ؟

أشار إليه الشيخ ، قائلاً فى رصانة :

ـ استخدم شبكة الاتصالات ، التى صنعها (فهد) ، فالخدم يحملون من الأسرار ما يجهله سادتهم .

هزّ الأمير رأسه ، قائلاً :

ـ سيظل أسلوب شبكة المعلومات هذا يدهشنى بشدة

أيها الوزير .. كيف جالت فكرة إنشائه بخاطرك ؟

أجابه الشيخ بكل رصانة ووقار :

ـ لم يكن هناك أسلوب سواه ، لجمع أكبر قدر من المعلومات ، دون أن أفارق مخيمى يا مولاى (ابن الأحمر) ، ومن يدرى ؟!.. ربما أصبحت هذه فى المستقبل ، وسيلة أو قاعدة أساسية لجمع المعلومات(*) .

أما (فارس) ، فلم يبد عليه الاقتناع هذه المرة ، وهو يقول :

ـ أظنه سيلتزم الحذر بشدة هذه المرة ، ولن يمكننا الحصول على معلومات هامة من الخدم .

قال الشيخ :

ـ لا توجد وسيلة أخرى يا ولدى ، فلا أحد رأى وجهه ، ولا أحد يعلم هويته .

شرد بصر (فارس) لحظات ، وهو يتمتم :

ـ نعم .. لا أحد رأى وجهه .

ثم استدار فى حركة حادة ، وهو يقول :

(*) عُرف هذا الأسلوب فيما بعد ، من خلال أجهزة المخابرات الدولية

ـ اغفر لى يا سيدى الشيخ .. اغفر لى يا مولاى ، فلدى مهمة عاجلة .

وانطلق يعدو عبر طرقات القصر ، حتى بلغ بوابته الخارجية ، حيث ينتظره (فهد) ، فأشار له ، قائلا :

ـ تعال يا (فهد) .. لدى مهمة عاجلة لك .

استمع (فهد) إلى تفاصيل المهمة جيدا ، دون أن ينبس بحرف واحد ، ثم وثب على متن جواده ، وانطلق به لا يلوى على شىء ..

لقد أسند إليه (فارس) مهمة بالغة الأهمية ، و ... والخطورة ..

* * *

هبط الظلام بسرعة ، فى ذلك اليوم ، مع السحب الكثيفة ، التى حجبت قرص الشمس ، بعد منتصف النهار ، وخلت الطرقات أو كادت فى (غرناطة) ، مع زخات المطر المستمرة ، على نحو لم يعهده طقس المدينة الأندلسية ، فى مثل هذه الفترة من العام ..

وتحت المطر ، تحرك (شيلوك) فى خطوات سريعة ، وهو يخفى وجهه بلثام كثيف ، لا يظهر منه سوى زوج من الأعين ، يطل منهما خبث الدنيا كله ، ويتلفت حوله فى توتر بالغ ، حاملا لفة كبيرة ، اتجه بها إلى أحد

المنازل فى المنطقة ، وطرق بابه فى عصبية ، وانتظر حتى سمع صوت جارية تسأل :

- من بالباب ؟!

أجابها متوترا :

- أنا بائع الثياب الجديد .. افتحى بسرعة .

ولم تكد الجارية تفتح الباب ، حتى دلف إلى الداخل فى سرعة ، وهو يسألها :

- أين السيد (سهم) ؟

رفعت القنديل الذى تحمله قليلا ، ليغمر الضوء وجهه ، ويكشف لها ملامحه ، وهى تجيب :

- فى حجرة الضيافة فى الطابق الثانى .

تركها بغتة ، وهو يتحرك فى خطوات واسعة سريعة ، حتى بلغ حجرة الضيافة ، وقبل أن يطرق بابها ، سمع صوت (بابلو) فى الداخل ، يقول باللغة العربية ، التى يجيدها إجادة تامة :

- لا أريد أن يعلم خادم واحد بوجودى هنا ، فمن الواضح أنهم يحصلون على معظم معلوماتهم من الخدم ، الذين ينتشرون فى كل مكان .. فلنجعل تعاملاتنا كلها من خلال الجوارى ، فهن لا يغادرن المنزل ، ويندر اختلاطهن بالخدم .

التصق (شيلوك) بالباب فى حذر ، ليختلس السمع أكثر ، وصاحب المنزل يقول :

- لا بأس يا سيد (سهم) ، ولكننى لا أحب أن يستمر هذا الأمر طويلا ، فما داموا يعلمون أنك تستهدف الأمير (زاهر) ، سيصبح الأمر بالغ الخطورة ، ووجودك هنا قد يتسبب فى ...

سمع (شيلوك) (بابلو) يقاطعه فجأة فى حزم :

- مهلا ..

ثم تناهى إلى مسامعه وقع أقدامه ، وهو يتجه نحو الباب فى خفة ، فأدرك أنه شعر بوجوده ، وأسرع يتنحنح ، قائلا :

- سيد (سهم) .. أأنت هنا ؟

فتح (بابلو) الباب فى حركة حادة ، ورمقه بنظرة صارمة صامتة لبضع لحظات ، قبل أن يسأله فى غلظة :

- متى وصلت ؟

أجابه فى سرعة :

- الآن .. الآن فقط يا مولاى .

وارتجف جسده مع تلك النظرة المخيفة ، التى يشمله بها (بابلو) ، من قمة رأسه ، وحتى أخمص قدميه ، فأسرع يدفع إليه اللفة التى يحملها ، قائلا :

- لقد أحضرت الزى الذى طلبته .

نجحت مناورته هذه فى تشتيت انتباه (بابلو) ، الذى التقط اللفة فى اهتمام ، وهو يقول :

- عظيم .

وحملها إلى داخل الحجرة ، حيث يجلس عربى بدين ، رمق (شيلوك) بنظرة عصبية ، قبل أن يغمغم :

- كيف حالك أيها اليهودى ؟

انحنى (شيلوك) أمامه انحناءة كبيرة منافقة ، وهو يلمس قمة رأسه بأصابعه ، قائلاً فى مسكنة :

- فى خير حال يا مولاى (حسّان) .. شكرًا لك .. شكرًا لك .

ازدرد (حسّان) لعابه فى توتر ، وكأنما لا يروق له وجود (شيلوك) فى منزله ، فى حين فضّ (بابلو) اللفة ، وفحص زى رجال الحراسة ، الذى أحضره (شيلوك) ، قبل أن يقول فى صرامة :

- أأنت واثق من أنه نفس الزى ، الذى يستخدمه حراس قصر الأمير (زاهر) ؟

أجابه (شيلوك) فى سرعة :

- دون أدنى شك يا سيدى .. لقد أحضره رجل من أقاربى ، يعمل عند نفس الحائك ، الذى يصنع ثياب

رجال الحراسة هناك .

أومأ (بابلو) برأسه ، قائلاً :

- فليكن .. أتعشم أن تنتظرنا ابنة عمك فى الموعد المتفق عليه ، فقد اتخذت قرارى بإنهاء تلك العملية بأقصى سرعة .

ورفع رأسه بضع لحظات فى صمت ، قبل أن يضيف :

- وسأبدأ رحلة العودة إلى (قرطبة) مع الفجر .

سأله (حسّان) متوترًا :

- لا تنس ما وعدنى به الملك (فرناندو) .

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتى (بابلو) ، وهو يقول :

- اطمئن يا عزيزى (حسّان) .. ستحصل على عرش (غرناطة) ، عندما نستعيدها من العرب .

ثم أشاح بوجهه ، مضيفًا فى اقتضاب :

- اطمئن .

نطقها وابتسامته الساخرة تتسع ..

وتتسع ..

وتتسع ..

* * *

عندما بلغ الوقت تمام منتصف الليل ، كان المطر المنهمر قد بلغ ذروته ، وخلت الشوارع تمامًا من المارة ، وحتى من الجنود ، وعلى الرغم من هذا ، كانت (راشيل) تتحرك في توتر ، خارج أسوار قصر الأمير (زاهر) ، وهي تتلفت حولها مضطربة ، ومياه المطر تغمرها تمامًا ، كما لو أنها خرجت على التو من البحر ..

وعند الزاوية المتفق عليها من السور ، توقفت (راشيل) ، وأطلقت من بين شفتيها صوتًا أشبه بنقيق الضفادع ، ولم تكد تنتهي منه ، حتى استقبلت أذناها نقيقًا مماثلًا ، فالتفتت إليه في سرعة ، ورأت (بابلو) يغادر مكمنه ، وهو يتجه نحوها في سرعة ، قائلًا :

ـ هيّا .. أسرعي .. قبل أن يلمحنا أحد .

سألته في دهشة ، وهي تعدو إلى جواره ، بمحاذاة السور :

ـ لماذا لا ترتدي ثياب الحرس ؟!

أشار إلى لفة يحملها ، من القماش المشمّع(*) ، قائلًا :

(*) في ذلك العصر ، كانوا يصبون الشمع السائل على الأقمشة ، لجعلها مقاومة للمياه (ووتر بروف) ، ولقد شاع هذا الأسلوب في المناطق الساحلية ، في صناعة أشرعة المراكب .

ـ ها هي ذي .. سأرتديها في الداخل ، فليس من المنطقي أن يجوّل حارس في القصر ، بثياب غمرها المطر .

أومأت برأسها موافقة ، وهي تتوقف أمام جزء من السور ، وتنحني لتدفع حجرًا من أحجاره ، ثم تديره رأسيًا ..

وفي بطء ، تحرّك ذلك الجزء من الجدار ، كاشفًا فجوة ، أطلّ منها بصيص من الضوء ، جعل (بابلو) يستلّ سيفه في سرعة ، قائلًا :

ـ أحدهم بالداخل .

أشارت إليه (راشيل) ، قائلة :

ـ كلا .. لقد تركت المصباح مضاءً ، ليقودنا في طريق العودة .

أعاد سيفه إلى غمده ، وهو يدلف خلفها إلى الفجوة ، التي أغلقتها في إحكام ، قبل أن تلتقط المصباح ، قائلة :

ـ اتبعني .

قادته عبر ممر طويل إلى قاعة صغيرة ، وقالت :

ـ لهذه القاعة أربعة أبواب ، كل باب منها هو مدخل سري ، لجزء من أجزاء القصر ، وسنختار أكثرها أمنًا ، ليقودنا إلى الداخل .



أشارت إليه (راشيل) ، قائلة :

ـ كلاّ .. لقد تركت المصباح مضاء ، ليقودنا فى طريق العودة ..

سألها ، وهو يبدل بثيابه ثوب الحرس :

ـ كيف كشفت وجود هذا ؟

أجابته فى اهتمام :

ـ لقد صنعه مالك القصر الأوّل ، ليمكنه التسلّل خارجه وقتما يشاء ، دون أن تشعر به زوجته ، وكان جدى خادمه الأمين ، والوحيد الذى أطلعه على سره ، وعندما مات المالك ، لم يعد هناك من يعرف سر ذلك المكان سوى جدى ، الذى لم يبح به لأحد من ورثة الرجل ، وإنما احتفظ به كسر تتناقله عائلتى ، حتى عرفته أنا .

ابتسم فى سخرية ، وهو يضع الخوذة المعدنية على رأسه ، قائلا :

ـ كان جدك حصيفًا على ما يبدو .

أومأت برأسها إيجابًا ، وهى تغمغم :

ـ كلنا كذلك .

ثم راحت تختلس النظر ، عبر فتحات دقيقة فى الأبواب الأربعة ، قبل أن تشير إليه ، قائلة :

ـ تعال .. لا يوجد أحد هنا .

ودفعت أحد الأبواب ، فأسرع يعبره إلى ممر من ممرات القصر ، وشدّ قامته فى ثقة واضحة ، وهو يقول لها فى حزم :

- قودينى إلى حجرة نوم أميركم .

أشارت بيدها ، قائلة :

- كلا .. لا يمكننى أن أصحبك .. هذا كفيل بإثارة الشبهات .. سأنتظرك هنا ، واتجه أنت إلى الأمام ، ثم انحرف يسارًا فيمينا ، وستعرف حجرة الأمير فور رؤيتها ، فعلى بابها حارسان قويان .

ابتسم فى سخرية ، قائلا :

- حارسان قويان .. آه .. عظيم .

وشدّ قامته مرة أخرى ، قبل أن يقطع الممر فى خطوات واسعة واثقة ..

كان يتحرك دون تردُّد ، كما لو أنه أحد كبار حرّاس القصر بالفعل ، حتى أن حارسى باب حجرة الأمير اعتدلا فى احترام ، عندما رأياه يتجه نحوهما مباشرة ، فتوقف أمامهما ، قائلا فى حزم :

- أفسحا الطريق .. عندى رسالة عاجلة لمولاى الأمير .

بدت الدهشة على الحارسين ، وقال أحدهما فى شك .

- رسالة عاجلة بعد منتصف الليل ؟

صاح به (بابلو) فى صرامة :

- وما موعد الرسائل العاجلة فى رأيك أيها المتحذلق ؟!

ارتبك الرجل ، مغمغما :

- لم أقصد هذا يا سيدى ، ولكن ..

لم يستطع إكمال عبارته مع اضطرابه ، فقال زميله بسرعة :

- ولكن الأوامر الجديدة تمنع أى مخلوق من دخول حجرة الأمير ، إلا بأمر مباشر من ...

قاطعه (بابلو) فى حزم :

- من الفارس (مهاب) ، قائد الأمن الجديد .. أليس كذلك ؟

ثم أشار إلى صدره ، مضيفًا فى قوة :

- أنا الذراع اليمنى لقائد الأمن (مهاب) ، وأحمل الرسالة العاجلة للأمير باسمه ... أفسحا الطريق .

ومع لهجته الحاسمة الصارمة ، لم يملك الرجلان الاعتراض ، فأفسحا له الطريق بالفعل ، ودفع هو باب حجرة الأمير ، ودلف إليها ، ثم أغلقه خلفه فى إحكام ، وابتسم فى سخرية ، وهو يلقى نظرة على النائم ، مغمغما :

- لم يكن الأمر عسيرًا يا (مهاب) .. من الواضح أن

الزمن أفقدك الكثير من حنكتك وبراعتك .

قالها ، واستل خنجره ، وتقدم نحو الفراش ، وهوى الخنجر يطعن النائم ..

ويطعن ..

ويطعن ..

ويطعن .

* * *



٥ - الماضى والحاضر ..

فجأة ، توقف (بابلو) عن الطعن ..

وفجأة أيضا ، أدرك الخدعة ..

وفى حركة عصبية ، أزاح غطاء الفراش ، ثم انعقد حاجباه ، وهو يتطلع إلى الوسائد الكبيرة ، التى مزقتها طعناته ، قبل أن يهتف :

ـ اللعنة !..

وفى نفس اللحظة ، التى أطلق فيها هتافه ، تسلل إلى أذنيه وقع الأقدام ، التى تتجه إلى الحجرة بسرعة ، مع صوت يهتف :

ـ إنه بالداخل .

انعقد حاجبا (بابلو) فى غضب ، وهو يتلفت حوله فى سرعة ، ثم اندفع نحو الشرفة ، فى نفس اللحظة التى اقتحم فيها الحراس الحجرة ، وصاح قائدهم :

ـ ها هو ذا .

انطلق الحراس نحوه ، ولكنه وثب عبر الشرفة ، ليتعلق بالأحجار البارزة ، من جدار القصر ، وراح يتسلقها فى رشاقة مدهشة ، جعلت قائد الحراس يهتف برجاله :

- لن تفيد سيوفكم .. استخدموا أقواسكم وأسهمكم .

أسرع الرجال يصوبون أسهمهم إلى (بابلو) ، الذى واصل تسلقه فى مرونة ، قبل أن ينطلق أول سهم نحوه ، ويتحطم على الجدار ، على قيد سنتيمتر واحد منه ، فوثب وثبة مدهشة ، ليتعلق بحافة السطح ، ثم يقفز إليه ..

وفوق السطح ، انقضّ عليه اثنان من الحرّاس ، ولكنه أغمد سيفه فى قلب أحدهما ، ثم انتزعه ليصدّ به سيف الثانى ، قبل أن يدور حول نفسه دورة سريعة رشيقة ، وينحنى متفاديا ضربة سيف قوية ، مرقت فوق رأسه مباشرة ، قبل أن ينقضّ على الحارس الثانى ، ويغوص بنصل سيفه فى معدته ..

وفى نفس اللحظة ، التى انتزع فيها سيفه من الحارس ، ظهر ستة آخرون ، وصاح أحدهم ، وهو يشير إليه :

- ها هو ذا .. لاتسمحوا له بالفرار .

انطلق (بابلو) يعدو فوق الأسوار ، والحرّاس الستة خلفه ، ولكنه فوجئ بآخرين يقطعون عليه الطريق ، وأدرك أنه وقع بين المطرقة والسندان ، فتوقف لحظة ، وقائد الحرس يهتف به :

- وقعت يا رجل .. لم يعد أمامك سبيل للفرار .

ولكن (بابلو) لم يتوقّف ..

ولم يستسلم ..

لقد ألقى نظرة أسفله ، ثم وثب من فوق سور القصر ..

ولثوان ، خُيّل للجميع أنه فضّل الانتحار على الاستسلام ، إلا أنهم أدركوا ، فى الثانية التالية مباشرة ، أنه وثب إلى شرفة أخرى من شرفات القصر ..

ولم يكد (بابلو) يهبط ، فى تلك الشرفة الأخرى ، حتى نهض واقفا فى مرونة ، واقتحم الحجرة التى تتصل بالشرفة ، وتجاهل صراخ الأميرات الصغيرات ، وهو يعدو عبر جناحهن ، قبل أن يغادره إلى الممر الكبير للقصر ..

وهناك ، وجد حارسا ، أدهشه أن يخرج (بابلو) بغتة من جناح الأميرات الصغيرات ، فأسرع يستلّ سيفه ، إلا أن (بابلو) لم يمهله ، وإنما انقضّ عليه فى قوة ، هاتفا :

- دعه فى غمده يا رجل .

ثم هوى على عنقه بسيفه فى عنف ، مستطردا فى سخرية :

ـ فلن تجد الفرصة لاستخدامه .

وانطلق يعدو عبر الممر ، حتى سمع (راشيل) تهتف به ، فى اضطراب شديد :

ـ هنا .. أسرع .. أسرع .

لمحها عند نهاية الممر ، وقد أزاحت جزءًا من الجدار ، وراحت تشير إليه ، فجرى نحوها بأقصى سرعته ، حتى بلغ موضعها ، و ...

وفجأة ، رآها (بابلو) تتراجع مذعورة ، وهى تطلق شهقة فزع ..

ثم انقضّ عليه شخص ما من الخلف ، واندفع معه داخل القاعة السرية الصغيرة ، قبل أن يُغلق ذلك الجزء من الجدار خلفهما ..

وانتفض (بابلو) فى عنف ، ليتملّص من ذراعى خصمه ، وقفز واقفًا على قدميه ، وهو يستدير إليه فى عنف ..

وعلى ضوء المصباح الخافت ، الذى تحمله (راشيل) ، رأى (بابلو) غريمه ..

واتسعت عيناه فى شدة ، وهو يهتف :

ـ عجبًا !.. إنك تشبه رسمًا قديمًا لـ ...

وصمت لحظة ، قبل أن يندفع مستطردًا :

ـ للفارس (مهاب) .

استلّ (مهاب) سيفه فى حركة سريعة حازمة ، وهو يقول :

ـ أنا هو أيها القشتالى .. ما رأيك ؟.. أيهما أكثر تأثيرًا .. الرسم أم صاحبه ؟!

هتفت (راشيل) فى ارتياع :

ـ إنه قائد الأمن الجديد .. يا ويلتى !.. لقد كشف أمرى .

صاح بها (بابلو) فى صرامة :

ـ تماسكى يا امرأة .. وماذا يهم فى كشفه لأمرك ؟

ثم انعقد حاجباه فى شدة ، متابعًا :

ـ إنه لن يخرج من هنا حيًا .

أطلت الصرامة من كل خلية من خلايا وجه (مهاب) ، وهو يقول :

ـ هكذا ؟!.. ما رأيك لو اختبرت هذا بنفسك أيها الوغد ؟

هتف (بابلو) فى مقت ، وهو ينقضّ عليه بسيفه :

ـ إننى أتوق لهذا منذ زمن طويل .

التقى سيفاهما ، وراحا يتقارعان ويتنازلان ، وصليل السيفين يجلجلان فى المكان الصغير ، و (بابلو) يهتف :

ـ فى صبّاى ، كانوا يضربون لنا المثل بك .

صاح (مهاب) ، وهو يضربه بسيفه :

ـ وعندما تصل إلى الجحيم ، ستعرف أنهم كانوا على حق .

تفادى (بابلو) الضربة ، وهو ينقضّ بدوره هاتفًا :

ـ لست أنوى الذهاب إلى الجحيم مبكرًا يا (مهاب) .. اذهب أنت أولًا .

استقبل (مهاب) السيف بنصل سيفه ، ودفعه فى قوة ، وهو يضرب فى رشاقة ، قائلا :

ـ لا صلة لى بالجحيم يا هذا .. أمثالك فقط يرحلون إليه .

كانت المبارزة قوية ، و (بابلو) يقول :

ـ خطأ يا (مهاب) .. خطأ .. عندما يتبارز الماضى والحاضر ، فلا يمكن أن ينتصر القديم قط .

ثم ضرب بسيفه بكل قوته ، صائحًا :

ـ وأنت الماضى يا (مهاب) .

تعالى صليل السيوف ، حتى أن قائد الحرس انتبه إليه ، فى ممر القصر ، فهتف برجاله فى صرامة :

ـ اصمتوا .

قالها ، وأرهف سمعه فى انتباه شديد ، قبل أن يضيف :

ـ هناك مبارزة تدور فى مكان ما .

دار حول نفسه فى بطء حذر ، بحثا عن مصدر الصوت ، قبل أن تتسع عيناه وهو يغمغم :

ـ أمن الممكن أن ...

بتر عبارته بغتة ، ثم اندفع نحو الجدار ، وألصق أذنه به لحظات ، قبل أن يتراجع هاتفا :

ـ ربّاه !.. هذا صحيح .. هناك ممر سرى خلف هذا الجدار .. أحضروا بعض الفئوس يا رجال ، أو اضربوا الجدار بسيوفكم ، فالمبارزة تدور فى مكان ما خلفه .

وفى نفس الوقت ، الذى انهال فيه الجنود على الجدار ، كانت المبارزة قد بلغت أوجها ، وراح (مهاب) يحاصر خصمه فى ركن القاعة ، قائلاً :

ـ ألم تعترف بعد أيها القشتالى ، بأنك لست أهلاً لقتال فرسان العرب ؟!

كان (بابلو) قد أدرك قوة خصمه بالفعل ، وأدرك صعوبة الانتصار عليه ، و ...

وفجأة ، برقت عيناه فى شدة ..

لقد لمح (راشيل) تنقض بالمصباح على (مهاب) من الخلف .

وتهوى به على مؤخرة رأسه بكل قوتها ..



ومع عنف الضربة ، تراجع (مهاب) ، ودار رأسه فى قوة ، فوثب (بابلو) نحوه ، ودفع سيفه فى صدره ..

ومع عنف الضربة ، تراجع (مهاب) ، ودار رأسه فى قوة ، فوثب (بابلو) نحوه ، ودفع سيفه فى صدره ، صائحًا :

- خسرت .. خسرت يا فارس العرب .

وحاول (مهاب) أن يتراجع ، أو يقفز جانبًا ، ولكنه شعر بآلام مبرحة فى صدره ، ثم طعنه سيف (بابلو) ، فعضّ شفتيه فى قوة ، ليمنع صرخة ألم ، كادت تنطلق من بينهما قوية ، قبل أن يسقط أرضًا ، مضرجًا فى دمه ..

وبرقت عينا (بابلو) مرة أخرى ، وهمّ بضرب عنق (مهاب) بسيفه ، وهو يهتف فى انفعال ظافر :

- أنا فعلتها .. أنا هزمت (مهاب) .

ولكن فئوس الرجال وسيوفهم اخترقت الجدار ، فى تلك اللحظة ، فهتفت (راشيل) فى ذعر :

- أسرع يا رجل .. أسرع .

واندفعت تعدو عبر الممر ، و (بابلو) خلفها ، فى حين تعالى صوت قائد الحرس ، وهو يصرخ :

- ألم أقل لكم ؟.. هناك فجوة خلف الجدار .. أسرعوا يا رجال .. أسرعوا بالله عليكم .

وفى نفس اللحظة ، التى اخترق فيها الرجال الجدار ،

وصرخ قائدهم :

- ربّاه !.. إنه القائد (مهاب) .

كان (بابلو) و (راشيل) يغادران المخرج السرى للنفق ، وينطلقان تحت المطر ، ليختفيا فى ظلام المدينة ..

مدينة (غرناطة) ..

* * *

لم يتوقّف المطر إلا مع فجر اليوم التالى ، وغرقت شوارع (غرناطة) كلها بمياه الأمطار ، التى غمرت الطرقات وأسطح المنازل ، ومنحت إيقاعًا خاصًا لحوافر (رفيق) ، وهو ينطلق بـ (فارس) عبر الطرقات ، متجهًا إلى قصر الأمير (محمد بن الأحمر) ، أمير (غرناطة) ، وانفتحت أبواب القصر أمامه فور ظهوره ، كما لو أن الجميع فى انتظاره ، فعبرها بسرعة ، وتوقّف فى ساحة القصر ، ليقفز (فارس) عن صهوة (رفيق) ، هاتفًا فى توتر :

- أين هو ؟!

أجابه حارس خاص ، فى اهتمام واضح :

- اتبعنى يا سيّدى .. إنهم فى انتظارك .

قاده الحارس عبر ممرات القصر إلى جناح الحكيم ،

وهناك رأى (فارس) الأمير (ابن الأحمر) والشيخ ، وحكيم القصر ، يلتفون حول فراش كبير ، رقد فوقه (مهاب) فاقد الوعى ، والضمادات تحيط بصدره كله ، فاندفع نحوه ، قائلا فى لهفة وانفعال :

- كيف هو ؟!.. أخبرونى أن القشتالى طعنه فى صدره .

استقبله الشيخ فى رفق ، قائلا :

- (مهاب) بخير يا ولدى .. سيحتاج إلى فترة طويلة ، قبل أن تلتئم جراحه ، ويستعيد قوته ، ولكنه بخير .. الطعنة لم تبلغ قلبه لحسن الحظ .

عضّ (فارس) شفتيه قهرًا ، وهو يقول :

- أراهن على أن ذلك اللعين يحتفل الآن بانتصاره على قائد الفرسان .

قال الأمير فى حزم :

- لم تكن مبارزة شريفة يا ولدى ، فهناك كدمة كبيرة فى مؤخرة رأس (مهاب) .. من الواضح أن أحدهم باغته بضربة خلفية ، سمحت لمبارزه بطعنه بغتة .

قال (فارس) فى غضب :

- يا للأوغاد !

وألقى نظرة حزينة مشفقة على (مهاب) ، قبل أن

يتابع فى توتر :

ـ أما زلت تصرّ على عدم تفتيش المنازل يا مولاى الأمير ؟

تنهّد الأمير ، وهو يلوّح بيده ، قائلاً :

ـ مازلت أصرّ على أنها خطوة غير مرغوب فيها ، فى الوقت الحالى يا ولدى .

عاد (فارس) يعضّ شفتيه ، قائلاً فى غيظ :

ـ إذن فليس أمامنا من سبيل ، سوى تركه يعيث الفساد فى ديارنا ، فى انتظار ضربته القادمة .

سأله الشيخ فى اهتمام :

ـ وماذا عن شبكة المعلومات ؟!

قلب (فارس) كفيه ، قائلاً فى حنق :

ـ لم ترشدنا إلى شىء هذه المرة ، ولست أدرى كيف .. لا أحد رأى شيئاً ، أو سمع شيئاً ، وكأنما لم يكن هناك وجود لذلك القشتالى قط .

انعقد حاجبا الشيخ ، وتبادل نظرة سريعة مع الأمير ، قبل أن يقول فى اهتمام ، وهو يداعب لحيته بأصابعه :

ـ إذن فقد انتبه للموقف .. من الواضح أن ذلك القشتالى أذكى وأبرع مما كنا نتوقع أو نتصور .. لقد أدرك بسرعة أن توصلنا إليه بهذه السرعة ، لا يمكن

أن يتأتى إلا عبر المعلومات ، التى يمكن استخلاصها من الخدم فى الأسواق ، فاتخذ الحذر فى المرة التالية .

سأله (فارس) فى اهتمام :

ـ ولكننا نستطيع تعرّفه هذه المرة ، فقد رآه حارسان فى قصر الأمير (زاهر) .. أليس كذلك ؟!

هزّ الأمير رأسه نفياً ، وهو يجيب :

ـ كلا للأسف ، فقد كان الضوء خافتاً ، وكان هو يرتدى خوذة الحرس ، ولم يسهل عليهما تعرّفه .

قال (فارس) فى غضب :

ـ عظيم .. هذا يعنى أن ذلك القشتالى نجح فى إحاطة نفسه بشرنقة قوية ، نعجز أمامها عن التوصل إليه .

التفت إليه الشيخ بغتة ، قائلاً :

ـ ولكنه لم يبذل جهداً مماثلاً ، من أجل (شيلوك) أو (راشيل) .

التفت إليه الجميع فى اهتمام ، وسأله الأمير :

ـ ماذا تعنى أيها الوزير ؟

أشار الشيخ بسبّابته ، قائلاً :

ـ أعنى أننا لو تتبعنا أثر (شيلوك) و (راشيل) ، بدلاً من ذلك القشتالى ، فستوصلنا المعلومات إليه حتماً .

هتف (فارس) فى حماس :

- هذا صحيح .. كم أنت عبقرى يا سيدى .

ثم التفت إلى الأمير ، مستطردا :

- اسمح لى بالانصراف يا مولاى ؛ فقد انتهك ذلك القشتالى وطننا طويلاً ، وحان الوقت لإيقافه .

قال الأمير فى هدوء :

- وفقك الله يا (فارس) .. وفقك الله يا ولدى .

وأسرع (فارس) يغادر المكان ، وهو يستعد لمواجهة جديدة مع ذلك القشتالى ..

مواجهة حاسمة ..

وأخيرة ..

* * *

لم يكد (بابلو) يستيقظ من نومه ، ويخرج لمقابلة (حسان) ، فى الصباح الباكر ، حتى استقبله هذا الأخير فى توتر شديد ، وهو يقول :

- سمعت أنك فشلت فى اغتيال الأمير (زاهر) أمس .

مط (بابلو) شفتيه ، وهو يقول ساخرا :

- لا تستخدم كلمة الفشل هذه أبدا أيها العربى .. أنا أمقتها بشدة ، وما حدث لم يكن فشلا ، وإنما حاول هؤلاء الأوغاد أن ينصبوا لى فخا ، فخدعتهم أنا ، وقتلت أبرع فرسانهم ، ونجوت بحياتى منهم .

قال (حسان) فى حدة :

- ولكنهم كشفوا أمرك ، ويعلمون أنك هنا فى (غرناطة) .

أطلق (بابلو) ضحكة ساخرة مستفزة ، قبل أن يقول :

- إنهم يعلمون منذ البداية يا رجل ، ولكنهم يعجزون عن الظفر بى ، فلا أحد منهم يعرف من أنا ، ولم ير أحدهم وجهى واضحا قط ، وبقى على قيد الحياة .

قال فى عصبية :

- ولكننى سمعت أنهم يحاولون إجبار (إفرام) على تعرفك .. إنه يعرفك جيدا .. أليس كذلك ؟!

هز (بابلو) كتفيه لا مباليا ، وهو يقول :

- هذا صحيح .. كان يعرفنى جيدا .

سرت ارتجافة فى جسد (حسان) ، وهو يقول :

- ماذا تعنى بكلمة (كان) هذه ؟

ابتسم (بابلو) ابتسامة وحشية ساخرة ظافرة ، وهو يجيب :

- ألم تصلك الأخبار بعد يا رجل ؟!.. (إفرام) مات مسموما فى سجنه أمس .

انتفض (حسان) فى ارتياع ، فى حين تابع (بابلو) ساخرا :

- أحد أبناء عمومته تقاضى منا كومة من الذهب ، ليرسل إليه وجبته الأخيرة فى السجن .

سأله (حسّان) ، وهو يزدرد لعابه فى صعوبة :

- أهو (شيلوك) ؟

صمت (بابلو) لحظات ، ثم قال فى هدوء ، وهو يجلس إلى صينية الإفطار :

- لم يكن بإمكان (شيلوك) أن يفعل هذا .

انخفض صوت (حسّان) ، وهو يسأل :

- ولماذا ؟

ارتسمت ابتسامة على شفتى (بابلو) ، وهو يتناول بعض الطعام فى صمت ، قبل أن يدفع عينيه إلى (حسّان) ، قائلاً :

- هل تعلم ؟.. عندما خرجت من هنا أمس ، لم تكن لدى ذرة واحدة من الشك ، فى أننى سأنجح فى اغتيال أميركم فى فراشه ، ثم أعود بعدها إلى (قرطبة) ظافرًا ، وفى الوقت نفسه كنت أشعر أن (شيلوك) هذا شخص لا يمكن الوثوق به أبدًا ، ولو أننى تركته خلفى ، فلن يتردد فى بيعى لأول من يدفع ثمنًا مناسبًا .

اتسعت عينا (حسّان) فى ارتياع ، وهو يقول :

- هل تعنى أنك .. ؟!

لم يستطع إكمال عبارته ، فهزّ (بابلو) كتفيه ، قائلاً فى هدوء ، وهو يواصل تناول طعامه :

- إننى أكره نقاط الضعف .

حدّق فيه (حسّان) ، فى مزيج من الذعر والهلع والاستنكار ، فرفع (بابلو) عينيه الساخرتين إليه ، قائلاً :

- لمَ لا تتناول طعامك ؟

ارتبك (حسّان) ، قائلاً :

- لقد سبقتك .

ثم ازدرد لعابه فى صعوبة ، قبل أن يسأله :

- هل تنوى تكرار المحاولة ؟!.. أعنى هل ستذهب ثانية إلى قصر الأمير (زاهر) ، و ...

قاطعه (بابلو) فى حزم :

- لم يعد هذا ممكنًا .. لقد انكشف أمر (راشيل) ونفقها السرى ، ولم يعد أيهما مفيدًا .

ارتجف (حسّان) ، وعجزت الكلمات عن الخروج من بين شفتيه ، وهو يتطلع إلى القشتالى ، الذى رفع عينيه إليه ، وقرأ ما يدور فى ذهنه ، فابتسم قائلاً :

- ما تفكر فيه صحيح .

شهق (حسّان) ، هاتفًا :

- حقًا ؟!.. هل قتلت (راشيل) ؟!

هزّ (بابلو) كتفيه ، وهو يقول بلا مبالاة :

- ألا ينطبق عليها ما انطبق على (شيلوك) ؟

صمت (حسّان) بضع لحظات ، وهو يراقب القشتالى ، الذى يواصل تناول طعامه فى هدوء شديد ، وكأنه لم يزهق كومة من الأرواح منذ ساعات معدودة ، وخيّل إليه أن دوره آت لا ريب فى القائمة ، فارتجف جسمه من قمة رأسه ، وحتى أخمص قدميه ، وهو يقول :

- سيد (سهم) .. صدقنى .. إننى أتمنى لك النجاح فى مهمتك ، ولكنك تقول : إنك لم تعد تستطيع دخول القصر ، ولم ...

قاطعه (بابلو) ساخرًا :

- وما حاجتى لدخول القصر ؟

هتف (حسّان) فى دهشة :

- ألم تقل إن ...

قاطعه مرة أخرى فى حزم :

- أنا لا أكرّر الموقف نفسه مرتين قط .

وابتسم فى خبث واضح ، وهو يستطرد :

- ثم إن لدى خطة مضمونة ، خاصة وأن غدًا الجمعة .

سأله (حسّان) فى حذر :

- وما الذى يجعل ليوم الجمعة أهمية خاصة ؟!

صمت (بابلو) لحظات ، قبل أن تتسع ابتسامته ، ويقول :

- كلكم تخرجون فيه ؛ لأداء صلاة الجماعة كما تسمونها .. أليس كذلك ؟!

اتسعت عينا (حسّان) فى ارتياع ، وهو يهتف :

- هل ستغتاله فى أثناء صلاة الجمعة ؟!

هزّ (بابلو) كتفيه ، وهو يجيب :

- ولِمَ لا ؟!.. ألا يرغب فى الذهاب إلى جنتكم بأقصى سرعة .

قالها وانطلق يقهقه ضاحكًا ، و (حسّان) يحدّق فيه فى هلع ..

لقد أدرك الآن فقط ، أن ملك قشتالة لم يرسل رجلًا عاديًا لأداء تلك المهمة ..

لقد أرسل وحشًا ..

وحشًا كاسرًا.

* * *

٦ - العنـــاد ..

جرع الملك (فرناندو) كأسـه فى عصبيـة واضحـة ، وهو يـروح ويغـدو فـى حجرتـه الواسـعة ، وتابعتـه (إيزابيـلا) بعينيهـا بضـع لحظـات ، قبـل أن تقـول فـى شىء من الضجر :

- سيقتلك يومًا ذلك المزيج ، من الخمر والتوتر .

التفت إليها فى حدة واضحة ، وهو يقول :

- ليس هذا من شأنك .

رفعت رأسها فى اعتداد ، قائلة :

- من قال هذا ، مصرعك سيضاعف همومـى حتمًا ، فسأضطر لقيادة كل الجيش ، و ...

قال فى عصبية :

- اطمئنـى .. عندمـا ألقـى مصرعـى ، سـأكون قـد أوصيت بدفنك معى حية ، فى قبر واحد .

ابتسمت فى سخرية ، قائلة :

- عندمـا تمـوت ، وأصبـح أنـا الملكـة الوحيـدة لـ (قشتالة) و (ليون) ، لن يبالى أحد بوصيتك .

انعقد حاجباه فى غضب شديد ، وهو يرمقهـا فـى مقت ، قائلاً :

- لماذا تتعمدين استفزازى يا (إيزابيلا) ؟

أساءها أن خاطبها باسمها مجرَّدًا ، ولكنها اندفعت تجيب فى حدة :

- لأدفعك إلـى الإفصـاح عـن سـر توتـرك الشـديد يا (فرناندو) .

مـطَّ شـفتيه محنقـا ، وأشـاح بوجهـه عنهـا ، ولاذ بالصمت بضع لحظات ، قبل أن يقول فى عصبية :

- (بـابلو) لـم يرسـل أيـة رسـائل ، منـذ وصـل إلـى (غرناطة) .

سألته فى دهشة :

- أمن المفترض أن يرسل رسائله يوميًا ؟!

قال فى توتر :

- من المفترض ألا يستغرق منـه الأمـر سوى ليلة واحدة فى (غرناطة) .

بدت عليهـا علامـات التفكير بضـع لحظـات ، قبـل أن تقول :

- ربما فشل فى مهمته .

هتف (فرناندو) فى ثورة مباغتة :

- مستحيل !

ثم صبَّ لنفسه كأسا أخرى ، وهو يضيف متوترًا :

- لا يمكن أن أخسر فارسا مثله .. إنه أفضل رجالى على الإطلاق .

رمقته بنظرة طويلة صامتة ، قبل أن تسأله :

- هل تشعر بالقلق على الفارس ، أم على المهمة ؟

جرع كأسه دفعة واحدة ، واحتقن وجهه بشدة ، وهو يجيب فى صوت مبحوح :

- على الاثنين معًا .

والتقط نفسا عميقا .. قبل أن يستطرد :

- المهمة أيضًا بالغة الأهمية .. لقد سئمت انتظار اللحظة المناسبة .. أريد أن أحطّم رموز النضال عند العرب ، ثم أنقضّ عليهم دفعة واحدة ، وأسحقهم سحقًا .

قالت (إيزابيلا) فى اهتمام :

- ربما كان هناك سبب آخر للتأخير .

سألها فى انفعال :

- مثل ماذا ؟!

صمتت لحظة ، قبل أن تجيب :

- ربما لم يستطع إتمام مهمته بعد ، ومازال ينتظر إتمامها ، ليرسل إليك الخبر .

التقى حاجبا (فرناندو) طويلا ، قبل أن يهزّ رأسه

فى حماس ، قائلا :

- تفسير منطقى .. منطقى للغاية .. خاصة وأن (بابلو) يتميّز بعناد لا حد له .. لن يقبل التراجع قط ، قبل الفوز بالنصر فى المهمة .. هذه واحدة من أفضل صفاته .

أجابته (إيزابيلا) :

- هذا لو أنه نجح .

بدا الغضب على وجهه ، وهو يقول فى حدة :

- ماذا تعنين بهذا ؟

أجابته فى هدوء :

- أعنى أن العناد سيصبح أجمل وأفضل صفاته ، لو أنه قاده إلى الفوز بمهمته ، أما لو فشل ، فسيكون قد قضى نحبه بسبب عناده ..

وارتفع رأسها فى اعتداد أكثر ، وهى تضيف فى حزم :

- عناد لم يمكن كبحه فى الوقت المناسب .

وتضاعفت نبرة الحزم فى صوتها ، مع استطرادتها الأخيرة :

- عناد مدمّر .

ولم يعلّق (فرناندو) هذه المرة بحرف واحد ..

* * *



٣ - انعقد حاجبا الشيخ فى اهتمام ، وهو يستمع إلى (فارس) ..

انعقد حاجبا الشيخ فى اهتمام ، وهو يستمع إلى (فارس) ، الذى يقول بلهجة ملؤها الحنق والضيق :

- ولقد عثروا على جثتى (شيلوك) و (راشيل) فى الساعات الأولى من الصباح ، داخل جوالين فى السوق ، وكل محاولاتنا لتعقب ذلك القشتالى باءت بالفشل .. لا أحد من الخدم رآه أو سمع شيئًا عنه .

هزّ الأمير رأسه ، قائلاً :

- هذا القشتالى ليس سهلاً .. إنه وحش كاسر يمشى على قدمين .. أنا لم أر فى حياتى كلها رجلاً يقتل بهذه السرعة والبساطة .

أجابه الشيخ فى هدوء :

- إنه يرفض ترك أى أثر خلفه .

قال (فارس) فى ضيق :

- ويبدو أنه نجح فى هذا بالفعل .

تطلّع إليه الشيخ بنظرة مشفقة ، قبل أن يقول فى خفوت :

- إنه لن يختبئ إلى الأبد .

أجابه (فارس) :

- هذا صحيح ، ولكننا لا نعرف متى وأين سيضرب ضربته القادمة .

قال الأمير فى حزم :

ـ أنا أعرف متى وأين .

التفتا إليه فى اهتمام ، فتابع على الفور .

ـ الأمير (زاهر) سيخرج غدًا لصلاة الجمعة ، وسيلقى خطبته بعدها كالمعتاد ، لحث الناس على التصدى للعدو القشتالى .

هتف (فارس) :

ـ ولكن هذا مستحيل !.. الصلاة تقام فى ساحة مكشوفة ، وهو يميل إلى إلقاء خطبته وسط الناس ، وهذا يجعله هدفًا سهلاً لأى شخص ، يندسّ بين الجموع .

تنهّد الأمير ، قائلاً :

ـ لقد شرحت له هذا ، ولكن لا يمكنك تصوّر مدى إصراره وعناده .. إنه يرفض الفكرة كلها ، ويؤكد أنه ما من انتحارى يجرؤ على اغتياله ، وسط كل من يحيطون به ؛ لأنه يعلم أن الناس سيمزقونه إربًا لو فعل .

قال (فارس) فى توتر :

ـ ربما لا يعنى قاتله كثيرًا ما يمكن أن يصيبه ، بعد أن يتم مهمته .

قال الأمير :

ـ لقد ناقشته فى هذا أيضًا ، ولكن حديثه أثار مزيدًا من عناده ، فهو يرى أنه لو أن القاتل لا يهتمّ بمصيره ، فمن الأجدى ألا يهتمّ هو نفسه بما يمكن أن يصيبه ، ما دام يفعل ما يؤمن به ، ويؤدى رسالته على أكمل وجه .

هزّ الشيخ رأسه ، وهو يقول فى وقار :

ـ الأمير (زاهر) طراز نادر من الرجال ، ولن يتراجع عما ينتويه قط .

قال (فارس) فى دهشة :

ـ حتى ولو كان الثمن هو حياته .

ابتسم الشيخ ، مغمغمًا :

ـ حتى ولو كان كذلك .

صمت (فارس) لحظات مفكرًا ، ثم قال :

ـ فى هذه الحالة ، ليس أمامنا سوى تشديد الحراسة حوله ، وتأمين سلامته بقدر استطاعتنا .

قال الأمير فى حزم :

ـ هذا ما أصدرت أوامرى بشأنه .. ستخرج فرقة كاملة لحراسة الأمير (زاهر) ، وهو يؤدى صلاة الجمعة ، ويلقى خطبته فى الجماهير .

سأله (فارس) :

- وهل سيدخلون المسجد بسيوفهم ؟

هزّ رأسه نفيا ، وهو يجيب :

- لن يخرجوا حتى فى زيهم الرسمى .. سيحيطون به لحمايته فى ثياب عادية ، حتى يبدوا كمجموعة من المصلين ، ولا يلفتوا إليه الانتباه .

قال (فارس) ، وهو يومئ برأسه :

- أتعشّم أن يفلح هذا .

وعندما تجاوزت العبارة شفتيه ، وتسللت إلى أذنيه ، أدرك على الفور أنه لم يستطع كتمان مشاعره ، التى خرجت معها ..

لقد كانت لهجته تحمل الكثير من القلق والحذر ، و ...

والخوف ..

* * *

تزايد توتر واضطراب (حسّان) ، وراح يتصاعد تدريجيًا ، منذ هبوط الليل ، حتى بلغ حدًا مخيفًا مع قرب منتصف الليل ، دون أن يغمض للرجل جفن ، أو يتوقّف لحظة واحدة عن الدوران فى حجرته كالطاحونة القديمة ..

كان واثقا من أن (بابلو) لا يدخر له خيرًا ، بعد انتهاء مهمته .

لقد هاله ما فعله بـ (شيلوك) و (راشيل) ، بعد أن انتهت حاجته إليهما ، ووقر فى نفسه أن مصيره لن يختلف كثيرًا عن مصيريهما ..

ولكنه لا يدرى ما الذى يمكنه فعله !!..

هل يبادر بقتل (بابلو) ، قبل أن يقتله ؟!..

أم يبلغ الأمير بشأنه ؟!..

إنه يخشى أن يسعى لقتل ذلك القشتالى ، فتفشل محاولته ، ويفقد حارسه الخاص ، ويصبح معرّضًا لانتقام (بابلو) ..

ولا ريب فى أن انتقامه سيكون رهيبًا ..

إنه لن يتردّد لحظة واحدة فى تمزيقه إربًا ، وإلقاء جثته لكلاب الطرقات ، دون أن يطرف له جفن ..

وارتجف جسده فى رعب هائل ، وهو يتخيّل ما يمكن أن يفعله به (بابلو) ، وامتقع وجهه فى شدة ، وهتف بصوت خافت :

- لا .. لا .. الفكرة غير صائبة بالتأكيد .

ولكن بإزاحة فكرة القتل ، لا تتبقى أمامه سوى فكرة وحيدة ..

إبلاغ الأمير ..
ومرة أخرى ، ارتجف جسده فى قوة ..
كيف سيبلغ الأمير ؟..
وبم سيبرر موقفه ؟!..
كيف يقنعه بأنه لم يتعاون مع القشتالى منذ البداية ؟!..
لا بد أن يجد وسيلة ..
لا بد ..
« فيم تفكر يا (حسان) ؟.. »
باغته السؤال ، وهو غارق فى أفكاره ، فانتفض فى قوة ، وقفز من مكانه ، وهو يطلق شهقة قوية ، هاتفًا :
ـ سيد (سهم) ؟!..
وتراجع ملتصقًا بالجدار ، وهو يرتجف فى هلع ، والرعب يطل من عينيه واضحًا ، مع تحديقه فى وجه (بابلو) ، الذى اقترب منه فى بطء ، ووجهه يحمل ابتسامة مخيفة ، حتى كاد يلتصق به ، وتطلع إلى عينيه مباشرة ، قائلاً فى بطء :
ـ هل أخفتك إلى هذا الحد ؟!
اتسعت عينا (حسان) فى هلع ، وتجمدت الكلمات على طرف شفتيه لحظة ، قبل أن يغمغم بصوت مختنق مبحوح :

ـ ولماذا تخيفنى يا سيد (سهم) ؟.
قال (بابلو) فى بطء مخيف :
ـ أخبرنى أنت .
حاول (حسان) أن يزدرد لعابه ، إلا أنه عجز عن هذا تمامًا ، فاختنق صوته ، وهو يقول :
ـ لا أحد يخاف صديقًا يا سيد (سهم) .
تطلع (بابلو) إلى عينيه لحظة فى صمت ، وكاد (حسان) يسقط صريع الرعب والفزع ، خلال تلك اللحظة ، قبل أن يتراجع (بابلو) ، مكررًا :
ـ أنت على حق .. لا أحد يخاف من صديق .
ثم ابتعد بضع خطوات ، وتابعه (حسان) ببصره ، وقد احتبست أنفاسه ، وراح قلبه يخفق فى عنف ، حتى ألقى (بابلو) جسده على أريكة واسعة ، وسأله :
ـ أين اعتاد الأمير (زاهر) أداء صلاة الجمعة ؟
أجابه (حسان) متحشرجًا :
ـ فى الساحة الكبيرة وسط المدينة .. إنه يؤدى فيها الصلاة ، وبعدها يقف خطيبًا ، ويلتف الجميع حوله .
ثم سأله فى حذر :
ـ هل تفكر فى التسلل وسط الجموع ، وقتله غيلة ؟
ارتسمت على شفتى (بابلو) ابتسامة ساخرة ، وهو يقول :

ـ التسلل وسط الجموع ؟!

وانفجر ضاحكًا ، على نحو ارتجف له جسد (حسّان) ، قبل أن يضيف :

ـ كلا يا رجل .. لست أظنني أفعل هذا .. إنها فكرة ساذجة للغاية .. كيف تطعن خطيبًا وسط مستمعيه ؟.. إنهم لن يتورّعوا عندئذ عن تمزيقك إربًا .

سأله (حسّان) فى خفوت :

ـ كيف يمكنك قتله إذن ؟

رمقه (بابلو) بنظرة طويلة ، قبل أن يقول فجأة فى سخرية :

ـ أما زلت ملتصقًا بالجدار ؟!

انتفض جسد (حسّان) ، وهو يبتعد عن الجدار فى حركة حادة ، قائلًا :

ـ كلا يا سيّد (سهم) .. كلا .. لم أعد كذلك .

قهقه (بابلو) ضاحكًا فى سخرية ، ونهض قائلًا :

ـ هذا أفضل .

ثم اتجه إلى خارج المكان فى خطوات هادئة ، ولم يكد يبلغ مخرجه ، حتى توقّف لحظة ، ثم التفت إلى (حسّان) فى بطء ، قائلًا بابتسامة ساخرة :

ـ نم جيدًا .

وغادر المكان فى حركة سريعة ، فاتسعت عينا (حسان) فى هلع ، وظلّ جسده ينتفض لحظات ، قبل أن يغمغم :

ـ هذا الرجل سيقتلنى حتمًا .. لن يتركنى حيًّا أبدًا .

وراح يفرك كفيه ، وهو يدور فى المكان كالمجنون ، وقد وقر فى نفسه أنه الضحية القادمة للقشتالى حتمًا ، وأخذ يحدّث نفسه ، مغمغمًا :

ـ إنه يجبرنى على معاونته .. نعم .. هذا هو التفسير الأمثل .. سأخبرهم أنه أجبرنى على مساعدته .. لقد احتلّ منزلى ، وهدّدنى بالقتل ، لو أبلغت الأمير بشأنه .. إنها أفضل فكرة .

وعاد يدور فى المكان ، وهو يبحث عن وسيلة لإبلاغ الأمير بهذا ..

لن يمكنه بالطبع الذهاب بنفسه ..

(بابلو) لن يسمح له ..

ثم إن هذا لن يبدو منطقيًّا ..

الأفضل أن يرسل رسولًا إلى قصر الأمير ..

ولكن ، هل يرسله فى هذه الساعة المتأخرة ؟!..

بالطبع .. لا بد أن يرسل رسوله فى مثل هذه الساعة ..

هذا يجعل الأمور أكثر قوة ، وأكثر منطقية ..

من الطبيعى أن يعجز عن إرسال رسوله فى ساعات النهار العادية .

سينتظر حتما حتى ساعة متأخرة ..

راقت له الفكرة ، وبدت منطقية للغاية ، فاجتاحه الانفعال ، وراح قلبه يخفق فى عنف ، وهو يتسلل إلى جناح الحريم ، ويوقظ جاريته ، هامسًا :

ـ تعالى .. أريدك فى أمر عاجل .

تثاءبت الجارية ، ولعلمت نفسها ، قائلة :

ـ أمر مولاى .

اصطحبها إلى خارج الجناح ، وهمس لها فى انفعال :

ـ أريد منك أن تذهبى إلى قصر الأمير (ابن الأحمر) .

هتفت فى دهشة :

ـ الآن .

قال فى عصبية ، وبصوت شديد الخفوت :

ـ اخفضى صوتك يا امرأة .. نعم .. أريد منك أن تذهبى الآن .. لن يفيدنى ذهابك فى أى وقت آخر .

كانت دهشتها كبيرة ، ولكنها قالت صاغرة :

ـ أنا رهن إشارة مولاى .

مال نحوها ، قائلا فى انفعال :

ـ اذهبى إلى هناك بأقصى سرعة ، وأبلغيهم الرسالة التالية :

وراح يمليها ما ينبغى قوله للأمير ، بحيث يبدو وكأنها تستنجد به ؛ لإنقاذ سيدها من ذلك القشتالى ، الذى احتل منزله بالقوة ، وأجبره على التعاون معه ، ثم قادها إلى باب المنزل ، قائلا :

ـ هيا .. انطلقى .

غادرت المنزل ، فأغلق الباب خلفها فى إحكام ، وعاد إلى جناحه فى سرعة وخفة ، لا تتفقان مع بدانته الواضحة ، وألقى نفسه فوق أول أريكة صادفته ، وهو يلهث فى شدة ، من فرط التوتر والانفعال ، وهو يتساءل ..

هل تنجح جاريته فى مهمتها ؟!..

هل تبلغ الأمير ؟..

لو أنها فعلت ، يكون هو قد نجا ..

صحيح أن ملك (قشتالة) قد وعده بعرش (غرناطة) ، ولكن كل شىء يبدو له الآن مخالفا لما كان ينتظره أو يتصوره ..

لقد اتضحت له الرؤية ، بعد فوات الأوان ، وأدرك أن القشتاليين لن يمنحوا امتيازا واحدا لعربى .

إنهم يسعون للبحث عمن يتعاون معهم ، ويفتح لهم السبيل إلى (غرناطة) ، وإلى إحكام قبضتهم على (الأندلس) كلها ، مقابل وعود كبيرة ، لا ينوون الوفاء بها قط ..

هذا ما تكشف له الآن ..

خوفه من (بابلو) أزال الغشاوة عن عينيه ، وجعله يرى الموقف فى وضوح تام ، و ...

« لم تنم بعد أيها العربى ؟.. »..

اخترق صوت (بابلو) أذنيه كسهم مسموم ، جعله ينتفض فى هلع ، ويهتف :

ـ سيِّد (سهم) ؟!

وكاد يصرخ فى رعب ، عندما استلّ (بابلو) سيفه من غمده ، وسقطت من النصل قطرة من دم طازج ، وهو يقول :

ـ هل يمكنك تعرّف هذا الدم يا (حسّان) ؟!

تجمّد (حسّان) فى مكانه ، وكاد قلبه يتوقّف عن النبض ، و (بابلو) يدنى السيف من عينيه ، قائلاً :

ـ انظر إليه جيدًا .

ثم انعقد حاجبا القشتالى فى صرامة مخيفة ، وهو يستطرد :

ـ إنه دم جاريتك .

أطلق (حسّان) صرخة مكتومة ، وراح جسده يرتجف فى عنف ، وترقرقت الدموع فى عينيه ، و (بابلو) يقول فى غضب :

ـ لقد أرسلتها لتبلغ الأمير بأمرى .. أليس كذلك ؟

بكى (حسّان) ، وهو يقول فى ضراعة :

ـ سيِّد (سهم) .. لا بد أن تفهم .. أنا لم أقصد ...

قاطعه (بابلو) بسرعة :

ـ لا تحاول يا (حسّان) .. جاريتك أخبرتنى كل شىء ، قبل أن أجتزّ عنقها ، وألقى رأسها للكلاب .

انهمرت دموع (حسّان) فى غزارة ، وهو يقول :

ـ الرحمة يا سيِّد (سهم) .. الرحمة .

جلس (بابلو) على مقربة منه فى هدوء ، وهو يقول :

ـ هل تعلم يا (حسّان) ؟!.. كنت أتوقّع هذا منك .. أنت خائن لوطنك ، والخونة جميعهم يتميزون بأمر واحد .. أنهم جبناء غدّارون .. لا يتورعون لحظة عن طعن أقرب المقربين إليهم فى ظهورهم ، للفوز بغنيمة بسيطة .. ولأنك خائن ، كنت أتعامل معك بحذر ، فمن يخون وطنه ، لا يمكنه قط أن يعرف الوفاء مع الآخرين ..

سقط (حسّان) أرضًا ، وأمسك قدم (بابلو) ، هاتفًا :

- سأفعل كل ما تأمرني به يا سيّد (سهم) .. كل ما تريده .

هزّ (بابلو) رأسه في بطء ، قائلاً :

- لم أعد أحتاج إليك للأسف يا (حسّان) .. تمامًا مثلما لم أكن بحاجة إلى (شيلوك) و (راشيل) .

اتسعت عينا (حسّان) في رعب هائل ، وهو يهتف :

- (شيلوك) و (راشيل) ؟!

رفع (بابلو) سيفه ، قائلاً في صرامة :

- نعم يا (حسّان) .. لم أعد بحاجة إليك أيضًا .

وهوى سيفه على عنق الخائن ، ثم هتف :

- أرأيت يا (حسّان) .. دماؤك أتلفت ثوبي .

ودفع الجثة بعيدًا ، وهو ينهض مستطردًا في سخرية :

- ولكنني سأسامحك لهذا ، ولن أعاقبك من أجله .

وفي هدوء ، مسح نصل سيفه في ثياب الرجل ، ثم غادر المنزل كله ، وهو يحمل قوسه وجعبة أسهمه على كتفه ، وقفز على صهوة جواده ، قائلاً له :

- هيّا أيها الجواد .. سنستعد لآخر خطوة في المهمة كلها .

قاد الجواد في طرقات (غرناطة) ، حتى بلغ الساحة الكبيرة ، فدار حولها قليلاً ، وهو يفحص المنازل المحيطة بها ببصره ، حتى انتقى من بينها منزلاً ، اتجه إليه بجواده ، وتوقّف إلى جواره ، ثم نهض يقف فوق الجواد ، ووثب يتعلّق بحافة سطح المنزل ، ثم دفع جسده إليه ، ورقد فوقه ، وقال للجواد :

- ابتعد أيها الجواد .. اختلط بالجياد في المنطقة ، ولكن كن يقظًا طوال الوقت ، فربما أحتاج إليك في أية لحظة .

ابتعد الجواد بالفعل ، وكأنه فهم العبارة ، في حين خلع (بابلو) قوسه عن كتفه ، وانتزع سهمًا من جعبته ، ورقد ينتظر انبلاج الصباح ، واقتراب موعد صلاة الجمعة ، حيث سينفذ آخر عملية في مهمته .. مهمته القاتلة .

* * *





ثم نهض يقف فوق الجواد ، ووثب يتعلّق بحافة سطح المنزل ، ثم دفع جسده إليه ..

٧ ـ رأس السهم ..

انتشر جنود أمير (غرناطة) ، حول الساحة الكبيرة ، فى ثياب مدنية ، تحت قيادة كبير فرسان القصر ، الذى قال لهم فى حزم :

ـ لا أريد أن يشعر شخص واحد بوجودكم .. راقبوا كل غريب يلفت انتباهكم ، وكل شخص تشتبهون فى أمره ، وكونوا على أهبة الاستعداد فى كل لحظة .. لا تسمحوا لأحد بالاقتراب من الأمير (زاهر) أكثر مما ينبغى ، وخاصة لو أنه يحمل سلاحًا ، ولا تنتظروا اللحظة الأخيرة للتدخُّل .

سأله أحدهم فى اهتمام :

ـ وماذا عن صلاة الجمعة ؟

أجابه كبير الفرسان فى حزم :

ـ إنها الفترة التى تحتاج منكم إلى جلّ انتباهكم ، فلو أن أحدهم يسعى لاغتيال الأمير ، فلن يجد فرصة أفضل من استغراق الأمير ومن خلفه فى صلاتهم ، وخشوعهم فى سجودهم وركوعهم .

قال الرجل فى قلق :

- ولكن هذا يعنى أننا لن نؤدى صلاة الجمعة .

أجابه كبير الفرسان فى حزم :

- إنها حرب يا رجل ، والضرورات تبيح المحظورات .. هذا ما لقننا إياه ديننا الحنيف .. ستظلون متأهبين طوال الصلاة ، وبعدها ستنقسمون إلى فريقين ، فيؤدى فريق صلاة الظهر ، ويواصل الفريق الثانى عمله ، حتى ينتهى الأول ، فيؤدى الصلاة بدوره .. الموقف يحتاج منا إلى اليقظة الدائمة ، تمامًا كالحروب .

ظهر الأمير (زاهر) فى هذه اللحظة ، محاطًا بحشد من الرجال ، من مختلف طوائف الشعب ، على نحو يشفّ عن شعبيته الساحقة ، وهو يقترب من الساحة ، فاستطرد كبير الفرسان :

- هيّا يا رجال .. الآن يبدأ عملكم .

اتجه كل منهم إلى موقعه ، فى حين تابع كبير الفرسان حركة الأمير (زاهر) ، الذى بلغ الساحة بعد مسيرة بطيئة ؛ بسبب التفاف الناس حوله ، ولم يكد يصل إلى الخطيب ، حتى استقبله هذا الأخير بترحاب شديد ، وصافحه فى حرارة ، ثم دعاه إلى إلقاء خطبة الجمعة بنفسه ، ولكن الأمير ربّت على كتفه ، وهو يعتذر فى دماثة ، ويؤكد له أنه أحق منه بهذا ، ثم أدى

ركعتى سنة المسجد ، واتخذ مجلسه فى الصف الأول ، فى حين انهمك رجال الأمير فى مراقبة المارة ، والقادمين لأداء صلاة الجمعة ، ووجوه الغرباء ، وأبواب المنازل المحيطة بالمكان ، دون أن يخطر ببالهم لحظة واحدة ، أن خصمهم هناك ..

فوق سطح المنزل المواجه للساحة تمامًا ..

لقد اتخذ مكمنه منذ ساعات طوال ، وقبل أن ينبلج الصباح ؛ لأنه يعلم أنه من المستحيل أن يصعد إلى السطح فى وضح النهار ، دون أن يجذب إليه انتباه الجميع وشكوكهم ..

وكان كل شىء يسير كما خطّط له تمامًا ..

إجراءات الأمن تدور على قدم وساق ، فى كل مكان ، دون أن ينتبه شخص واحد إلى وجوده ، أو يراوده الشك بشأن مخبئه ..

لقد صبر طويلاً ليظفر بخصمه ..

ولم يعد يفصله عنه سوى دقائق معدودة ..

فقط عندما تنتهى خطبة الجمعة ، وينهض الأمير مع الجميع لأداء الصلاة ، ثم يستغرقهم الموقف الروحانى تمامًا ، و ...

ويطلق هو سهمه ..

ومن المؤكد أن إصابة الأمير ، فى تلك اللحظة ، كفيلة بإثارة كم هائل من الاضطراب والبلبلة ، يتيح له فرصة الفرار ، قبل أن تمتد إليه يد واحدة ..

لقد أعدّ خطته فى حنكة ومهارة هذه المرة ..

ولم يعد هناك سبيل للفشل ..

أى سبيل ..

وفى هدوء ، التقط قوسه ، وسهمًا من جعبته ، ودسّ قاعدة السهم فى وتر القوس ، وجذبه فى بطء ، وهو يتابع الخطبة ، التى اقتربت من نهايتها ، وعينه لا تفارق ظهر الأمير قط ..

لقد اختار النقطة ، التى سيصوّب إليها سهمه ..

منتصف مؤخرة عنق الأمير بالضبط ..

وارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة ، وهو يتخيّل الموقف ، وردود أفعال الجميع ..

ثم انتهت خطبة الجمعة ، وانطلق المؤذّن يعلن قيام الصلاة ويدعو إليها ..

وانتبهت حواس (بابلو) فى شدة ، عندما نهض الأمير مع الجماعة ، وبدأت الصلاة ..

وفى بطء ، جذب وتر قوسه ، وهو يصوّب السهم إلى هدفه بمنتهى الدقة ..

كان الهدف واضحًا أمامه ..

وهو واثق تمام الثقة من قدرته على إصابته ..

وارتفع (بابلو) بجسده فى بطء ، ليحسن تسديد سهمه ، ولم يعد أمامه سوى أن يفلت الوتر ، فينطلق السهم ، ويستقرّ فى مؤخرة عنق الأمير .

وتنتهى المهمة ..

تنتهى بنجاح منقطع النظير ..

ولكن فجأة ، ظهر ذلك الفارس الشاب ، الذى يرفل فى ثوب ناصع البياض ، وخوذة فضية ، تنعكس عليها أشعة الشمس ..

ظهر بغتة من خلف الساحة ، وهو يشير إليه ، هاتفًا :

ـ ها هو ذا .

كانت مفاجأة حقيقية للقشتالى ، الذى انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يفلت الوتر ، ويطلق القوس نحو الهدف ..

ومع انطلاق السهم ، اندفع (فارس) نحو الأمير (زاهر) بأقصى سرعته ، ثم وثب يحيط وسطه بذراعيه ، ويدفعه معه أرضًا ، فى نفس اللحظة التى مرق فيها السهم على قيد سنتيمترات قليلة منهما ..

وفى غضب هادر ، صرخ القشتالى :
ـ اللعنة !
وساد الاضطراب فى المكان ، وهتف الإمام فى دهشة :
ـ ماذا يحدث هنا ؟!
ولم يكن بحاجة فعلية للجواب ، الذى بدا واضحا للغاية ..
لقد حاول أحدهم اغتيال الأمير (زاهر) ..
ولم ينتظر (فارس) ليشرح ما حدث ، وإنما نهض فى سرعة ، وانطلق يعدو نحو ذلك المنزل ، الذى يقف فوقه القشتالى ، الذى أطلق صفيره القوى ، فظهر جواده الأسود فى المكان ، وهو يعدو نحوه ، وقفز هو إلى متنه ، وهو يستل سيفه ، ويهوى به على عنق أقرب جندى ، حاول الانقضاض عليه ، قبل أن ينطلق بالجواد بأقصى سرعته ..
وهتف (فارس) :
ـ إلىّ يا (رفيق) .
وقبل أن ينتهى هتافه ، كان جواده الأبيض يشق طريقه بين الجموع إليه ، فتعلق (فارس) بمعرفته ، وجرى إلى جواره لحظة ، ثم وثب إلى متنه بحركة رشيقة ، وانطلق خلف القشتالى ..

حدث كل هذا بسرعة مدهشة ، حتى أن أحد المصلين هتف مبهورًا :
ـ ماذا حدث ؟!.. لقد أفسدوا صلاة الجمعة .
التفت إليه الأمير (زاهر) ، قائلا فى صرامة :
ـ لا أحد ، مهما علا شأنه ، يمكنه أن يفسد صلاة الجمعة ، أو أية صلاة أخرى يا رجل .. الصلاة لله (سبحانه وتعالى) ، وليست لبشر .
واعتدل مستطردًا :
ـ هيا أيها السادة .. سنترك لهم مهمة السعى خلف القاتل ، ولنكمل نحن صلاتنا .
ولم تمض لحظات على قوله ، حتى كان الخشوع يغلّف الجميع ، وهم يؤدون صلاتهم ، ويحمدون الله (سبحانه وتعالى) على نجاة الأمير ..
أما (فارس) ، فقد انطلق خلف القشتالى ، الذى ألقى لثامه على وجهه ، وهو يشق طريقه وسط الطرقات الخالية ، بسبب صلاة الجمعة ..
ولأوّل مرة ، منذ بدء مهمته ، شعر (بابلو) بقلق حقيقى .
لقد اختبر خصمه من قبل ، ويدرك أنه ليس بالخصم السهل ، ثم إن جواده الأبيض قوى بالفعل ، ولن يلبث

أن يصل إليه ، وعندئذ سيضطر للمبارزة ، ولن يكون هذا فى صالحه أبدًا ، وسط مدينة تكتظ بأعدائه ..

لذا كان من الضرورى أن يلجأ إلى الحيلة ..

وبسرعة ، دارت عيناه فيما حوله ، وهو ينطلق بجواده ، و ...

وفجأة ، لمح وسيلة للخلاص ..

قائم خشبى ، يبرز من الطابق الثانى لأحد المنازل ..

وفى حزم ، لكز (بابلو) ، جواده ، هاتفًا :

ـ أسرع أكثر أيها الجواد .. أكثر .

ثم رفع قدميه ، واستند إلى السرج بكعبيه ، وتأهَّب ، و ...

وقفز فجأة ..

والواقع أن (فارس) لم يكن يتوقَّع هذه المبادرة قط ..

لقد انطلق بكل قوته خلف خصمه ، متصورًا أنه سيواصل المطاردة حتى أبواب المدينة ، ولم يتصوَّر أبدًا أن القشتالى سيبتر المطاردة على هذا النحو العجيب ..

وأمام عينيه مباشرة ، رأى القشتالى يتعلَّق بالقائم الخشبى ، ثم يدور بنصف جسده حوله فى مرونة ، قبل

أن ينثنى ، وينفرد ، ويقفز إلى سطح المنزل ..

وجذب (فارس) معرفة جواده ، وهو يهتف به :

ـ قف يا (رفيق) .. قف .. لقد خدعنا الرجل .

توقَّف (رفيق) ، بعد أن تجاوز ذلك المنزل بالفعل ، فأداره (فارس) إليه ، ووقف على ظهره ، ووقف يتعلَّق بالقائم بدوره ..

وفى رشاقة ، لا تقلّ عن رشاقة القشتالى ، وثب إلى السطح ، ورأى (بابلو) يعدو بعيدًا ، ويقفز من سقف إلى آخر ، فاندفع نحوه ، وراح يعدو خلفه ، ويقفز بدوره من سطح إلى آخر ، فى محاولة للحاق به ..

وكان من الواضح أن القشتالى خصم لا يستهان به ..

وأن الظفر به لن يكون سهلاً أبدًا ..

ولكن (فارس) أيضًا كان خصمًا لا يستهان به أبدًا ..

لقد واصل المطاردة فى إصرار شديد ، وراح يقترب من (بابلو) رويدًا رويدًا ، على الرغم من الجهد الهائل ، الذى يبذله كلاهما ، بالقفز من سطح إلى آخر ..

وأدرك (بابلو) أن (فارس) ظافر به لا محالة ، فقال لنفسه :

ـ الفرار لن يفيد يا (بابلو) .. لا مفرّ من المواجهة .

وفى لحظة واحدة ، اتخذ قراره ، واستدار يواجه (فارس) فى حزم ..

وتوقف (فارس) فى مواجهة خصمه ، واستلَّ سيفه ، وهو يقول فى صرامة :

- لا فائدة من محاولة الفرار أيها القشتالى .. لقد انكشف أمرك ، وانتهى كل شىء .

قال (بابلو) ساخرًا :

- حقًا ؟!.. يا لقوة كلماتك أيها العربى .. إننى أرتجف هلعًا .

قال (فارس) فى صرامة :

- هل ستستسلم بإرادتك ، أم أضطرك لهذا ؟!

أجابه (بابلو) فى سخرية :

- بل اضطرنى لهذا أيها المغرور .

ثم انقضَّ بغتة ، مستطردًا :

- وفورًا .

التقى سيفاهما فوق السطح ، وراحا يتبارزان فى قوة ، وسيفاهما يصلصلان فى المكان كله ، ويلتقيان فى قوة ، ثم يفترقان فى عنف ..

كان من الواضح أنهما خصمان متكافئان إلى حد كبير ..

وأنه من المستحيل أن يتنبأ شخص ما بنتيجة المبارزة ..

ولكن (بابلو) كان يتميَّز عن (فارس) بأمر بالغ الأهمية ..

بالخبث والدهاء ..

والوحشية ..

وفى مرونة ، تراجع (بابلو) خطوة ، وهو يستقبل سيف (فارس) بسيفه ، قائلا فى سخرية :

- ضرباتك قوية أيها العربى ، على الرغم من صغر سنك .

ضربه (فارس) بسيفه فى قوة ، قائلاً :

- هذا لأننى تلقيت دروسى على يد أقوى فرسان هذا العصر أيها القشتالى .. الفارس (مهاب) .

انعقد حاجبا (بابلو) ، وهو يصدّ الضربة بسيفه ، هاتفًا :

- آه .. أنت تلميذ (مهاب) إذن .

ثم انقضَّ بغتة فى عنف ، وهو يصرخ :

- أبلغه تحياتى فى الجحيم إذن .

كانت انقضاضة عنيفة قوية رشيقة ، تراجع (فارس) أمامها فى سرعة ، وانحنى متفاديًا نصل

السيف القوى ، وهو يدفع قدمه إلى الخلف ، و ...

وفجأة ، غاصت قدمه فى الفراغ ..

لقد تجاوز حافة السطح ، دون أن يدرى ، فاختلّ توازنه ، و ...

وهوى ...

وفى نفس اللحظة ، التى سقط فيها من السطح ، انطلقت ضحكة (بابلو) الساخرة ..

ضحكة استفزازية عنيفة ، اخترقت قلب (فارس) ، قبل أن تخترق أذنيه ، وهو يدفع يديه إلى الأمام ، محاولاً التعلّق بأى شىء ..

أى شىء ..

ولكن زاوية سقوطه لم تكن تمنحه الفرصة لهذا ..

لذا فقد هوى إلى الأرض مباشرة .

ومن حسن حظه أن الارتفاع لم يكن يتجاوز الطابقين ..

ثمانية أمتار فحسب ، قطعها جسده فى لحظة واحدة ، قبل أن يهبط على قدميه ، ثم يسقط على ظهره ، وضحكة (بابلو) الساخرة تبتعد ، وتبتعد ، وتبتعد ..

وفى نفس اللحظة ، ظهر الجنود ، وهم يعدون نحوه ، فهتف بهم :

ـ إنه على السطح .. أعنى فوق الأسطح .. الحقوا به .

وبسرعة ، تسلّق الجنود ما يحيط بهم من منازل ، فى محاولة للحاق بالقشتالى ، إلا أن هذا الأخير لم يكن هناك ..

لقد اختفى هذه المرة أيضًا ..

اختفى تمامًا ..

* * *

« لست أدرى أين ذهب هذه المرة .. »

لوّح (فارس) بذراعيه فى توتر ، وهو ينطق العبارة الأخيرة ، فهزّ الشيخ رأسه فى وقار ، وهو يقول :

ـ لا بأس يا ولدى .. لا بأس .. يكفيك ظفرًا أنك أفسدت خطته ، وأنقذت الأمير (زاهر) فى اللحظة الأخيرة .

قال (فارس) فى ضيق :

ـ معذرة يا سيدى ، ولكننى أعتقد أن هذا وحده لا يكفى ، فما دام ذلك القشتالى هنا ، فإنه سيعيد الكرّة مرّات ومرّات .

قال الأمير فى اهتمام :

ـ أعتقد أن موقفه لم يعد بالقوة التى كان عليها يا فتى ، فلقد عثروا على التاجر (حسّان) قتيلاً فى

منزله ، وعثروا على جاريته الأثيرة مقطوعة الرأس ، على بعد شارع واحد منه . وباستجواب جارية أخرى ، أفادت بأنها تشك فى ذلك الضيف ، الذى قدم إليه على نحو مريب ، فى نفس اليوم الذى هرب فيه منك ذلك القشتالى ، فى المرة الأولى ، كما أكدت أن (شيلوك) كان يزور ذلك الضيف كثيرا .

عقد (فارس) حاجبيه ، وهو يقول :

ـ إذن فقد كان يختبئ فى منزل (حسان) .. يا للخائن !.. كيف يساعد قشتاليًا ؟

تنهد الشيخ ، قائلا :

ـ الطمع يا ولدى .. طمع الدنيا يعمى العيون ويصم الآذان ، ويغلق العقول .

وافقه الأمير ، وهو يكمل حديثه ، قائلاً :

ـ هذا صحيح أيها الوزير .. ولكننى لا أعتقد أنه هناك خائن آخر ، يمكنه أن يخفى ذلك القشتالى فى منزله ، وهذا يعنى أنه صار شريدًا فى (غرناطة) ، ومن السهل كشف أمره .

انهمك (فارس) فى التفكير لحظة ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ أو أنه سيغادرها مؤقتا .

سأله الأمير فى اهتمام :

ـ ماذا تعنى يا فتى ؟!

أجابه (فارس) فى حماس :

ـ أعنى أن هذا القشتالى بالغ الذكاء والبراعة يا مولاى الأمير ، ومثله سيدرك بسرعة أن وجوده فى (غرناطة) ، دون مأوى معروف ، سيضعف موقفه كثيرًا ، ويجعله عرضة للشبهات والسقوط ، ولن يكون من المنطقى أن يحتل منزلا مثلا ؛ لأنه لا يستطيع تحديد الفرصة القادمة ، التى يمكنه فيها الظفر بالأمير (زاهر) .. إذن فأفضل ما يفعله هو أن يغادر المدينة مؤقتًا ، ويختفى وسط الغابات والتلال المحيطة بها ، حتى تهدأ الأمور قليلاً ، ونتصور نحن أنه رحل ، فيعود ليباغتنا باغتيال الأمير .

ارتسمت على شفتى الشيخ ابتسامة هادئة ، وهو يقول :

ـ أحسنت يا ولدى .. أحسنت .

نقل الأمير بصره بينهما لحظة ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ فليكن .. سأصدر أوامرى بإيقاف كل من يحاول مغادرة (غرناطة) ، وتفتيشه جيدًا .

قال (فارس) فى اهتمام :

- ولكننا مازلنا نجهل هيئته الحقيقية .

سأله الأمير فى دهشة :

- ألم تبارزه فوق الأسطح ؟

أومأ (فارس) برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

- هذا صحيح ، ولكنه كان ملثمًا كالمعتاد .

قال الأمير فى قلق :

- كيف يمكننا حل هذه المشكلة إذن ؟.. لن يمكننا منعه من الخروج ، مادمنا نجهل هيئته .

أشار الشيخ بسبابته ، وهو يقول فى هدوء :

- أغلق كل مخارج المدينة ، فيما عدا واحدًا ، وليقف (فارس) هناك ، لمراقبة كل من يحاول الخروج .

سأله الأمير فى حيرة :

- وفيم يفيد هذا ؟!.. (فارس) لم ير وجهه قط .

أومأ الشيخ برأسه ، قائلاً :

- ولكنه يعرف هيئته .

صمت الأمير لحظة ، قبل أن يقول :

- وهل يكفى هذا ؟

قال (فارس) :

- من يدرى يا مولاى ؟!.. ربما كانت هناك وسيلة لتعرّفه ..

دعنا ننفذ خطة الشيخ ، وليكن ما يكون .

قال الأمير فى حزم :

- فليكن .. سننفذ خطة الوزير .

شعر (فارس) بالارتياح ، عندما صدرت أوامر الأمير ، وامتلأ ذهنه بصورة واحدة ، وجد فيها حل الأزمة كلها ..

صورة (فهد) !

* * *

توقّف (بابلو) على صهوة جواده ، على مسافة مائة متر من المخرج الوحيد للمدينة ، يراقب ما يحدث فى اهتمام ..

كان من الواضح أنهم يبحثون عنه ، وسط المغادرين للمدينة ، فى نهاية نهار الجمعة ، الذى تزدحم فيه الأسواق ، وتتزايد أعداد الغرباء ، على نحو يفوق مثيله ، فى أيام الأسبوع الأخرى .

وكان واثقًا من أن أحدهم لا يعرف وجهه الحقيقى ..

حتى (فارس) ، الذى وقف بينهم ، يراقب الخارجين فى اهتمام شديد ..

كل ما يمكنهم تعرّفه هو هيئته العامة ، وثيابه ، وجواده ..

ولقد تخلص من كل هذا ..

ولم يكن الأمر عسيرا ..

لقد انقضّ على شخص ما ، وخنقه بلا رحمة ، ثم استولى على ثيابه وجواده ..

ومن حسن حظه أن ذلك الشخص كان أكثر منه بدانة ..

لقد أحاط جسده بقطع من ثيابه ، قبل أن يرتدى ثياب ذلك الرجل ، فبدا بالفعل أكثر بدانة ، وتغيّرت هيئته العامة تمامًا ، مع ثيابه ، وجواده ..

ولعل أكثر ما ضايقه هو التخلّى عن جواده ..

ولكنه إجراء مؤقّت فحسب ، فما إن يصبح خارج المدينة ، ويهبط الليل ، حتى يطلق صفيره الخاص ، فيلحق به جواده ، ويختفيان معًا فى الدغل القريب ، حتى تحين فرصة العودة ، واستكمال المهمة ..

ولكنه أكثر حذرًا من أن يخرج منفردًا ..

إنه ينتظر لحظة خروج عدد من التجار أو الفرسان ، لينضمّ إليهم ، ويخرج وسطهم ، دون أن يثير أدنى شبهة ..

ومن بعيد ، لاح له ما ينتظره ..

عدد من التجار ، يتناقشون فيما بينهم ، وهم

يتجهون إلى المخرج ..

وبسرعة ، اتجه (بابلو) بجواده نحوهم ..

واختلط بهم ..

وفى ثقة وهدوء ، اتجه معهم إلى المخرج ، وهو يسأل أحدهم :

ـ لماذا كل إجراءات الأمن هذه ؟

هزّ التاجر كتفيه ، قائلا :

ـ ألم تسمع بأمر محاولة اغتيال الأمير (زاهر) ، فى أثناء أداء صلاة الجمعة ؟!

رفع (بابلو) حاجبيه فى دهشة مصطنعة ، وهو يقول :

ـ آه .. هذا هو السبب إذن .

وراح يتبادل الحديث مع التاجر ، على نحو جعلهما أشبه بصديقين قادمين ، وهما يعبران المخرج ، و ...

وفجأة ، انطلقت صرخة تهتف :

ـ ها هو ذا ؟

استدار (بابلو) فى سرعة إلى مصدر الصوت ، وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يتطلّع إلى جوادين ، يقتربان من المكان بسرعة كبيرة ..

وعلى متن أحدهما ، كان يجلس (فهد) ، بجسده

الأسود القوى ، وعضلاته البارزة الواضحة ، فى حين استقرّ على صهوة الجواد الثانى رجل آخر ، يعرفه (بابلو) جيدًا ..

الحارس الخاص للشيخ (حسام بن على) ..

الرجل الوحيد ، الذى رآه فى وضوح ، ويمكنه تعرُّفه فى ثقة ، وبقى على قيد الحياة ..

وكان الحارس هو صاحب الهتاف ، وهو يشير إلى (بابلو) ، مستطردًا فى انفعال :

- لقد أبدل هيئته ، ولكننى لن أخطئ تعرُّفه قط .. لقد انحفرت ملامحه فى ذهنى ، ولن يمحوها الزمن قط .

وفى سرعة وحزم ، لكز (بابلو) جواده ، واندفع به وسط الجميع ، واستلّ سيفه فى قوة ، ليهوى به على كل من يقف أمامه ، وهو يصرخ :

- ابتعدوا أيها العرب .. ابتعدوا .

كان أمره قد انكشف ، وهو يعبر المخرج بالفعل ، مما ساعده على تجاوزه بسرعة ، والانطلاق بأقصى سرعته مبتعدًا ..

وجذب (فهد) عنان جواده ليطارده ، إلا أن (فارس) وثب على صهوة جواده ، هاتفًا :

- اتركه يا (فهد) .. إنه لى .

وانطلق بأقصى سرعته خلف (بابلو) ..

وللمرة الثانية ، شعر القشتالى بالحنق ؛ لأنه اضطر لاستبدال جواده ، فلم يكن الجواد الذى يمتطيه بنصف كفاءة جواده ..

ولهذا لحق به (فارس) فى سرعة ..

وبكل قوته ، لوّح (بابلو) بسيفه فى وجه (فارس) ، هاتفًا :

- إياك أن تقترب أيها العربى ، وإلا ...

استلّ (فارس) سيفه بدوره ، وراحا يتبارزان على صهوة جواديهما ، وهما ينطلقان جنبًا إلى جنب ، و (فارس) يهتف :

- لن تربح هذه المرة أيها القشتالى .. لن تربح بإذن الله .

شعر (بابلو) أن (فارس) على حق هذه المرة ، وهو يقاتل بكل القوة والعنف والبسالة ، على متن جواد قوى مدرّب ، يفوق جواده عشرات المرات ، فاختلس نظرة سريعة إلى معرفة (رفيق) ، التى يتشبث بها (فارس) ، وهو يضرب بسيفه فى مهارة ، واستقبل سيف (فارس) على سيفه ، هاتفًا :

- هل تراهن أيها العربى ؟

ثم تراجع بسيفه بغتة ، وأماله فى سرعة ، وهوى به على تلك القبضة من معرفة (رفيق) التى يمسك بها (فارس) ..

وجاءت ضربته فى موضعها تماما ..

لقد اجتزت ذلك الجزء من معرفة (رفيق) ، فاختل توازن (فارس) بغتة ، مع ضحكة (بابلو) الساخرة ، وهو يهتف :

- وداعا أيها العربى .. لقد خسرت معركتك الأخيرة معى .

كان من الطبيعى أن يفقد (فارس) توازنه ، بعد هذا الاختلال المباغت فيه ، إلا أن رد فعله جاء مدهشا بحق ..

لقد قبض على بطن (رفيق) بفخذيه ، ودفع جسده إلى الأمام ، و (بابلو) يتجاوزه بخطوات قليلة ، و ...

وهوى بسيفه على رباط سرج جواد (بابلو) ..

وانقطع الرباط بغتة ، ففقد القشتالى توازنه ، وسقط عن صهوة جواده ، وهو يهتف :

- اللعنة !.. لقد فعلها .

سقط أرضا فى عنف ، وتناثرت جعبة الأسهم فى مساحة واسعة ، ولكنه قفز واقفا على قدميه فى

سرعة ، وهو يشهر سيفه ، هاتفا :

- لم تنته المعركة بعد أيها العربى .

قفز (فارس) عن صهوة جواده ، وهو يقول :

- صدقت أيها القشتالى .. المعركة بدأت ..

ووسط تلال (غرناطة) الغناء ، تقارع السيفان ..

وكانت أقوى مبارزة شهدتها التلال الخضراء ..

اثنان من أقوى فرسان العصر ، يلتقى سيفاهما فى قوة وعنف ..

ومرة أخرى ، أدرك (بابلو) أن خصمه لا يستهان به ..

واتخذ قراره بأن القوة وحدها لن تحسم القتال ..

ومن منطلق قراره هذا ، هتف :

- أراهن على أن (مهاب) لقنك الكثير من مبادئه السخيفة أيها العربى .

هتف به (فارس) ، وهو يضرب فى قوة :

- هذا صحيح أيها القشتالى .. (مهاب) لقننى كل مبادئه ، وأنا أشعر بالفخر لهذا .

أطلق (بابلو) ضحكة عالية ساخرة ، وهو يقفز إلى الخلف ، قائلا :

- الفخر ؟!.. لن يفيدك الفخر كثيرا فى الجحيم

يا هذا .. كل ما ستفعله بك مبادئ (مهاب) ، هو أن ...

بتر عبارته بغتة ، واحتقن وجهه فى شدة ، ومال نصل سيفه ، وهو يقول فى ألم واضح شديد :

ـ اللعنة !.. تلك الأزمة الـ ...

وسقط على ركبتيه ، وهو يسعل فى شدة ، فانعقد حاجبا (فارس) ، واقترب منه فى حذر ، قائلاً :

ـ ماذا أصابك ؟!

سعل (بابلو) مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ صدرى .. أشعر بآلام عنيفة .. اللعنة !.. إننى ..

مال (فارس) نحوه ، و ...

وفجأة ، استعاد (بابلو) نشاطه دفعة واحدة ، وانطلق سيفه يضرب سيف (فارس) فى قوة ، ثم انقضّ على صدره ، وهو يطلق ضحكته الساخرة ، هاتفًا :

ـ خسرت أيها العربى .

طار السيف من يد (فارس) ، وتراجع فى حركة حادة ، ليتفادى نصل سيف (بابلو) ، فسقط على ظهره أرضًا ، فى حين وثب القشتالى واقفًا على قدميه ، وانقضّ عليه فى عنف ، صارخًا فى سخرية :

ـ انحسم الأمر أيها العربى ، وفاز (بابلو دى لوركا) كالمعتاد .

كان سيفه ينقضّ على صدر (فارس) مباشرة ، عندما التقطت يد هذا الأخير أحد الأسهم ، التى تناثرت من جعبة (بابلو) ، فقبض على رأسه فى سرعة ، ثم ألقاه بكل قوته نحو غريمه ..

ودار السهم حول نفسه بسرعة مدهشة ، قبل أن ينغرس رأسه فى صدر (بابلو) ..

وفى موضع القلب تمامًا ..

وشهق القشتالى ، واتسعت عيناه فى ألم وذهول ، وسقط سيفه من يده ، وهو يحدّق فى وجه (فارس) ، الذى نهض فى بطء ، قائلاً :

ـ الآن فقط انتهت المعركة أيها القشتالى .

ارتجفت شفتا (بابلو) ، وانفرجتا لحظة ، وجسده كله يترنّح ، ثم لم تلبث الدماء أن تدفّقت من بينهما ، قبل أن يهوى جثة هامدة ، ويرتطم وجهه بالأرض ..

أرض (غرناطة) ..

ولم ينبس (فارس) ببنت شفة ..

لقد وقف صامتًا ، ساكنًا ، يتطلّع إلى جثة (بابلو) ، التى أصبحت رمزًا لفشل آخر للقشتاليين ، فى احتلال آخر ما تبقّى للعرب فى (الأندلس) ، وخيّل إليه أن الرؤية من حوله تتسع وتتسع ، لتشمل المشهد كله ،

بأشجاره وتلاله ، وتلك المدينة فى نهايته ، التى صارت رمزًا للصمود فى ذلك العصر ..

ـ (غرناطة) ..

حيث تحطّم الغرور القشتالى برأس معدنى صغير .. رأس السهم .

* * *

[تمت بحمد اللّه]

رقم الإيداع : ٤٦٨٤ / ٩٧٧ / ٢٦٦ / ٠٠٣ / ٣

فارس الأندلس

8

من البطولات العربية

فى أحرج فترة للعرب فى أسبانيا

رأس السهم

- ما سر تلك المهمة، التى أسندها الملك (فرناندو) لحارسه الخاص (بابلو دى لوركا)؟!
- كيف نجح الفارس القشتالى فى مهمته ، حتى كاد يظفر بأحد أمراء (غرناطة) فى أرضه ؟!
- ترى هل ينجح (فارس) فى التصدى للقشتالى ، أم يخسر عملية (رأس السهم) ؟!
- اقرأ التفاصيل المثيرة ، وعش عبق التاريخ مع (فارس الأندلس) ...

الرواية القادمة الطريق إلى قرطبة

المؤلف



د . نبيل فاروق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

٢٢٧٥٩